ليلى و الحاج
محمد الأحمد
رواية

ليلى والحاج

رواية

الكتاب : ليلى والحاج

المؤلف: محمد الأحمد

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : ٢٠١٩

ISBN : 978-9922-9091-2-7

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (1866) لسنة 2019

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار : بغداد - شارع المتنبي - مجمع الميالي - الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من اشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

ليلى والحاج

رواية

محمد الأحمد

(أ)

"كل ما يرد في هذه الحكاية
من صنع الخيال، وأي تشابه
مع الواقع مصادفة محض".

(ب)

هل نتواصل بالسؤال حيثُ "مازال المنتصرون
عاجزين على أن يقرّوا السلم وينظموه؛ لأنهم
عاجزون أن يتفقوا فيما بينهم؟"[1]..

(ج)

الشعر المُنتخب الى الحاشية من ديوان
الشعر الاندلسي، بغرض التشتيت.

---

[1] طه حسين

تمهيد

استطعتُ بقليلٍ من النقود مع علبة سجائر، أن أطلع خلسة على مسودة الرواية المَسلوبة، لأكتشف السبب الحقيقي الذي كان وراء إيقافها عن النشر، بتلك الطريقة الفظّة.

وفي غفلة نسختها، ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بمحتواها؛ وتمّ إرجاعها إلى سالبها على عجل، تحسبا لعاقبة الأمر".

١.

لقبتني "أمي" بـ"اليونة"، لكني لم أكتشف "اليونتي" إلا بعد وفاتها، وبعد فوات الأوان، إذ قضيت معظم سنوات طفولتي، أعتبر ذلك إطراءً في غير محله، نفاقاً، أو عادة كذب يمارسها الآخرون، تجاهي، وأني لا أحمل أية صفة من الصفات التي يصفونني بها، لأنها صفات غير حقيقة.. كأنما أضيّع كل الحسنات التي يكتشفونها فيّ، ولا أسمح لأحد أن يلاطفني بها، حيث أَعْنِدَ إلى درجة أكون فيها، مُبالغة، مُتَماهية إلى حدّ التصلب، وأبقى أَحرّنُ، لا أصغي إلى أي جدل مهما كان مقنعا، إلا لصوت في أعماقي، أظنه صحيحا، فيجعلني أكثر ثباتا على ما أريد..

عندما أراجع نفسي، الآن، وفي كل وقت، قد لا أجد سببا حقيقياً يجعلني أغادر أيام الطفولة، بكل ذلك التصلب، والتطرف..

وقد لا أعرف كيف أفكر بطريقة حازمة مع كل من يشاركني هذه الحياة، كنت أبتسم، وأنا أخفي غضبا يستعر داخلي، أو كنت أظهر غضبا وأنا في أعماقي أكون في غاية الهدوء تعلمت ان ادقق في ملامح الذين حولي، الاحظ صفاتهم ادقق في قسمات وجوههم، احفظ،

واحاول ان ارسم ما يرسمونه على وجوههم. كنت احاول ان استقرأ، وكأني لست مع عالم يعيش بكل حقائقه معي.

اذ تعلمت الكثير من "امي"، اتخيلها، وكما كانت صارمة جداً، تحسب للوقت الف حساب منتظمة، ودقيقة وكأنما يومها مقسم الى جدول تسير عليه. اتذكرها؛ تركض في حياتها لتلحق كل شيء وتجعله في وقته، منظمة، طيبة القلب، تظهر مرحا غريبا الى الاخرين، على الرغم من تعاستها، غالبا ما اكتشفها تبكي كثيرا مع نفسها، بمرارة. ارى في اعماقها حزنا مقيما يشفّ منها، اخفته عنا.

صرت مشغولة بتلك الصفات التي ألحظها، فيّ، وفي ابويَ وشقيقتي، وفي الاخرين، لأستشف عمق التعاسة الدفينة تحت ابتسامتهم اليابسة.. كنت اميزَ الوجوه جميعها، خاصة التي تحاول ان تمتلئ بما ليس فيها، فقيرة الاعماق، بائسة المشاعر، لذلك كنت المتشددة مع كل من حولي.. لا اريد نفاقهم، ولا مجاملات منهم في غير محلها.

على عكس "شقيقتي" الوحيدة، احاول ان اتميّز عليها بكل شيء، على الرغم من حدود تفكيرها وخيالها، اراها مطيعة الى درجة ان لا تعترض على اي شيء في هذا الكون، ولا اريد ان اصدق منها ذلك، واتحسس صدقها العميق.

كنت ارسم كل الوجوه التي تمرّ في حياتي، واسترجع ملامحها، ولا انساها.. احفظ في كل وجه علامته الفارقة، الوجه الابيض الذي يحتقن باحمراره، الوجه الاسمر الذي يزداد سماره، ارتجاف في نغمة الصوت، اضطراب في حركة اليد.. كلها تجعلني لا انسى كل وجه يمرّ بي.

فحاولت ان اختار الرسم الصادق على وجهي، وادعمه بثقة دافقة من نفسي. رحت ارسم ابتسامة ابي القاسية بعناية على وجهي، ووداعة انبساط اسارير "أمي" عندما تكون خارجة عن التوتر. تعمدت وضع اسرار الوجوه على وجهي، فأصير محظية "والدي" ساعة اريد. فأستقبل ابتسامة من ابي تغمرني، برضا عن كل ما افعله. صرت متعلقة بذلك الغمر، منتظرة منه التشجيع، فأرنو اليه في كل خطوة.

ولا اتذكر ابدا كيف فارقتنا والدتي وكم كانت قد مسحت تفاصيل كثيرة من داخل عقلي.. ظروف صارت غامضة عليّ، لم ادركها - الا فيما بعد ايضا، ولكن بعد فوات الاوان.

وكلما جئتهم بالسؤال عنها يقولون كأنما ينهوني لأكف السؤال عنها، حيث رحلت الى عالم آخر، ولم نكن مقتنعتين- انا وشقيقتي- بأي

تبرير لغيابها العاجل، المفاجئ. بين يوم وليلة، ثم اودعنا والدي في بيت امه لأكثر من شهرين، وبقينا لم نغادر متعة تذكرها. سألناهم مرارا ولم نجد غير جواب واحد سبق ان لفظوه على اسماعنا، بثقل ودون مراعاة؛ "ماتت"، وحسب.

حاولنا السؤال عنها، واصطدمنا بأجوبة مبهمة:

- "مرضاً عضالاً فتك بها".

٢.

ينحدر ابي من عائلة "العزوز" الغنية المعروفة بتنظيم رحلات الحج إلى بيت الله، والمشهورة بالتزامها الديني وحبها لرجالات الدين الحنيف.. وقد ذكروا بأن تلك العائلة تَنَكرتْ لأبنها "مجبل" عندما عشق "رضية المنيف"، وأتمّ زواجه منها على سنة الله ورسوله، وكان يعرف ان زواجه منها قد كلفه مُسبقا مقاطعة تامة من أهله.

ويقال ان "والديّ" قد عانا كثيرا من عوز وتشرّد، لأن أبويه لم يكونا راضيين، وتركاه في مواجهة درب عواصف الفاقة المريرة. كأنما عائلة "المنيف"، قد اخذت منهم ابنهم بالسحر. وتلك العائلة، ايضاً قد تخلت عن ابنتها، وتبرأت منها، لأنها خرجت عن التقاليد والاعراف، وتزوجت من دون رغبتهم، من غير طائفتهم، واشاعوا ان اخوتها، قد هددوا الزوجين بموت سوف يلاحقهما مثل لعنة دائمة.

بقيّا يجولان في البلاد البعيدة، منهوكين، ضائعين، ويسافران من أرض إلى أرض.. هائمان لا يستقران.

المرأة الصَبيَّة الذكية، قد ورثت عن اهلها خبرة واسعة في معالجة الناس بواسطة الاعشاب البرية، وعلمت زوجها الطب الذي تعلمته

من اهلها، وسرعان ما اكتسب منها معرفة مصادر الاعشاب، واماكنها، وحفظ اشكالها، وتعلم منها ما يطحن، ما ينقع، ما يغلى، ما يبرد، وما يطبخ، وكيف يستخدم، ومواعيد استخدامه.

كان سريع الحفظ، متلهف الاستزادة.. حيث راحا يعملان سويا في معالجة الناس، ومن كل مريض يزدادان معرفة، وجرأة، واستنتاجا.

حققا بعملهما شهرة واسعة، تفاقم رزقهما، كلما كثرت تجاربهما الناجعة مع الناس، واظهرا براعة في مقدرتهما على شفاء حالات لم يستطع عليها غيرهما، ثم طغت شهرتهما الافاق..

٣.

عرفت فيما بعد بان مهنة "ابي" الرئيسة هي السحر، ولم تكن مهنة الطب.. حيث كنت اسمع والدتي ترفض مضيّه في غير الطب الذي تعلمه منها، وكانت تقول له بكل هدوء ان لا يقبل على نفسه ذلك الخداع. كانت ترجوه ان لا يخرج من طور الطبيب المعالج، الى طور الساحر المتحاذق.

لكنه ظل يتمادى على مهنته، ويوغل في إهدار حقها كمهنة نبيلة خالصة، تخلص الناس من الآلام، بدلا من ادخالهم في الاوهام التي تضيعهم.. كانت تعرف انه كلما تورط، وبدأ باستغلال ذلك الاشهار، متعمداً بتشويه سمعة اهلها، الادعاء بمعرفته للسحر، يُهينها كزوجة من ديانة اخرى علمته الطب، تجعل الناس يعتقدون انها هي من علمته فنون السحر الكاذب.. كأنما يصير ذلك غطاءً مشروعا لما ينوي المضي فيه. ولأنها الزوجة التي لحقت به من دين آخر. يكون ذلك الفعل تهمة على دينها ولا تريد ان يكون زوجها علامة اتهام على دين اهلها بانه دين السحر، بين بقية الأديان الاخرى.

كان ذلك يغضبها وينغّص حياتها معه، لأن صفة السحر، من صفة الشيطان، حسب مفهوم دين اهلها الذي كانت عليه، لذلك تنفيه وتستهجنه الاديان على الاطلاق. "السحر فعل الاموات في العالم الاخر، والحي القيوم المطلق لا تتغير ارادته، لا احد، يعترضها، ويغيرها بالجماد". باتت تتحسس من ان يلقى بتبعات السحر والشعوذة على اهلها، وسمعة دينهم صاحب التراث الانساني الطاهر. ولم يكن مهتما بما يحدث في داخلها من ضغط نفسي لم يقدره، يبدو لها انه كان متقصدا ذلك امام المجتمع، انها هي من يهين اهله، شرّ اهانة، كأنما علمته السحر، وهي لم تعلم سوى الطب، وشتان ما بين الطب والسحر. تلك رسالة تضعف موقفها مع اهلها، وتعزلها عنهم الى الابد، وتجعل طريقها اليهم منقطعا الى الابد، وتجعلهم يزدادون بغضاً لها.

بينما هي كانت تحبهُ زوجاً، وكانت تتمنى ان تفتخر به امام اهلها، وتثبت لهم انها ربحت من يحبها. وان الحبّ الحقيقي لا تعترضه اختلافات

المعتقد، ولا تفصل بينه المفاهيم القابلة للتغير، حيث يبقى الانسان انساناً محبا، لكل انسان يحبه، ويبقى الانسان بما يكتسب من معرفة تنيره، وتعززه، وتجرده من قيود لا مكان لها مع الانسانية..

كانت تراعي ان لا يكون جدلها معه، حاجزاً يحرمنا كأطفال من هَناءة الدفء العائلي، ومتمنية بحرص على ان لا يزيد معها تلك الهوة، كونها تريد ان تسمح لشخص ثالث ان يتدخل بينهما ويتحكم ولو بالنقاش العائلي حول ما يمضي به، من مواصلة الاغراق في عزلتها معه، حيث صرنا نسمع ضحكاته، وسخريته اللاذعة حول جديتها، وكأنما لم يكن هو السبب المباشر في ألمها..

حيث كانا يعرفان، ان فعل الـ"سحر" لا يمارسه الا ممثل حاذق، له مواصفات نفسية تدفعه، اولها الثقة بالنفس تجعله امام الناس انه القادر على تحقيق شيء خارق لن يتحقق ما لم يكن قادرا على ايهام الناس، بقدرته، بأنه امر قابل للتحقيق، يجعلهم بذلك مؤهلين للتخييل بكيفية قبول أفعاله الخارقة.

ايقنت انه فقد اتزانه، وتحول الى مهرج معتوه، لا همّ له سوى ان يؤدي حركات غير سوية، ويظهر انفعالات غير مقنعة، مثل اللاعب بالسيف الذي يهيب به محيط دائرته.

كان يبدو لها مستمتعا باختراعه لتلك الألفاظ الغريبة، والتي لا توجد لها معان في كافة قواميس لغات اهل الارض، كأنها مؤثرات صوتية، يصعب على غيره اصدارها، او تقليدها، أصوات غير مألوفة، وتتطلب مجهودا كبيرا، فتفرض على سامعها الخوف، والإذعان ليكون منتظرا لما سوف يأتي.

كانت "امي" تعرف جيدا طبيعة تلك اللعبة الخطرة، من بعد ان اخذ يستعين بأشخاص آخرين، متخفين خلف العرض، كفريق لا يظهر احد منهم في الواجهة، يشعلون معه نارا لتحويل نقطة التركيز عليها، ثم يطلقون اصواتا من آلات موسيقية بدائية، كأن ينفخوا له في ماسورة مجوفة مفتوحة الجانبين، ويعطي الصوت صورة توهم عن مرور كائن غريب ينتظرون وصوله من عالم الغيب، بفارغ اللهفة، حتى يتم استجوابه عن فعل حدث في الماضي، له الزمان والمكان، والحادثة، فيحكي لهم عن ما رآه من تفاصيل دقيقة، يتفاجأ بها هو قبل غيره، برغم يقينه بأنها معلومات تلقاها من افراد يتقصون له الاخبار

من ألسنة الزائرين، يقتنصونها له اقتناصا، من زلة اللسان، ويجدها حفظت بشكل جيد، ويعاد ترتيبها وفق ما يراد للزبون ان يكون اثباتا على انهم مطلعون على الغيب، اولا بأول، ويوهمونه بأن المستقبل مفتوح بسطور جلية، من الممكن قراءتها، تتجلى بتحذيرات تجعله يشك بمن حوله، وتجعله مصدقا لحقائق دامغة، في حقيقتها جمل عابرة، تترى من عقل الساحر، ووفق ما يتصوره .

لم تكن امي وحدها من كانت تحكي لنا بتشويق عما يفعله "السحرة" في الناس حيث يستخدمون سرا في بعض الاحيان بعضا من الالعاب النارية، ودائما لعبهم بالنار يؤدي الى نتائج عادة ما ينتظرونها بفارغ الصبر لأنهم يستنهضون خيال الخائف ويسخرونه لخدمتهم، وذلك العمل الفاتن يتطلب من المساعدين الدقة البالغة في بناء تلك الظلال المتحركة الباعثة على الرهبة. يتطلب منهم ذلك العثور على من يتفذلك، ويواصل حضوره الخفي في ساحة العرض. مواصلة التناغم بين الخيال والواقع، مرحلة اللعبة التي قد تصيب، وبها تتحقق الغايات. العاملون في الخفاء، هم المساعدون المستمرون بتقديم ذلك الدعم، وأحيانا يكون لهم دور المُصدق، المؤمن بأن الفعل جرى، بتحد يرغم الاخرين على ان الحدث قد حدث مثلما يريده الخيال، وليس مثلما حدث على الواقع. ذلك التصديق الزائف هو التصديق

المؤسس لفعل الخيال، وكانه لم يكن خيالا، وحسب انما قد وقع كواقعة فعلية لا تكذب، ومن يكذبها هو اول الواهمين، ان ذلك التأسيس، يتطلب ايضا الحضور، وهو الحضور المقنع لمن لا تتوفر له القناعة.. ان ذلك التجرد يساعده بتلك المؤثرات لتبدو للناس انها ابعاد حقيقة، لا يختلف حولها اثنان. وتنعكس فيهم رهبة الفعل بعد الفعل، حيث تتكون المعجزة التي تنهض لتكون حقيقة شاخصة لا تقبل التبديل، بعد تلك الرهبة، التي عبأت انفسهم بنغمتها الفاعلة.

حيث الحاذق القدير بأدائه المتقن، هو من يواصل اثبات سطوته، وتمكنه من قيادة عالم من الكائنات التي لا تراها الناس، كائنات تعيش بين الناس، بدون ان يلحظها البشر حيث يزاحمون ذلك الوجود، ويتحكمون بكل من يريدون التحكم به فهم غير منظورين بالعين البشرية، لكنهم يرون البشر واحيانا يفعلون بهم ما يطيب لهم، ذلك العالم في اغلب الاحيان، يريد ان يزيح البشر، ويتداخل مع تصرفاتهم وفق ما يريد، ويتلاعب بمصائر من حوله، فيستطيع التحكم والسيطرة على قوتهم، فهم القوة الخفية المتحكمة بتصرفات البشرية، يفعلون الشر ويفتكون بمن شاؤوا، هو الوحيد القادر على التأثير في ذلك العالم الخفي الذي لا ينظر، عالم سري، بعلوم سرية، مستحيلة

الكشف، لا يتعلمها الا عابر بحيرة المستحيل، تلك البحيرة النهائية، لا يعرف احد مكانها، وعادة ما تكون نهاية كل من يحاول عليها ولا يستطيع، حيث الاغتسال من مائها اما ان يأخذ العقل الى سقر وبئس المصير، واما يكمل السباحة ويعبر الى ضفة امانها، ويكون من الحاكمين المقدرين، الذين يخافهم العالم الاخر. ويكون منصبه قيادة تلك الكائنات الخفية، حيث يسخرها لفتوحاته، ومَطيَة يديه، وعقله، وقلبه. ذلك الجيش الفاتك القوي يسكن بين جوانحه، يتظاهر انه يراه وفي الحقيقة لا يراه.

تصديق الناس له في قرارة نفسه يجعله متحررا من كل ذلك الخوف، ومتحررا من ذلك المجهول الذي يقوده. كساحر قدير، عليه ان يكون في قرارة نفسه اول المصدقين لذلك الخيال. الإغراق في التصديق يغمره بالغرور، ثم يخسر قدراته.

لذلك كان يجتهد ان يعرف نفسه اكثر، وان يدرك اكثر ان لا يدع نفسه تغرق في متعة الخيال. فينقلب عليه الخيال، ويكون مزيحا لمساحة الواقع.. ان يثبت قدميه على الارض، بدلا من الطيران الذي قد يسقطه ارضا، ويتلفه. عليه ان يرضخ بقناعة بان ما يصلح للناس، وما يقدمه اليهم لا يصلح لنفسه. ويترك الناس من حوله تتعامل مع اخيلتهم، ويترك نفسه تتعامل معهم، بواقعية حقيقية دامغة، وان

يصحو من الحلم الى الواقع وعندما تذهب الناس الى احلامها، ما ينفعه ان يشارك الناس احلامهم، فقد تحتم مصيره. ادرك ذلك بيقين لا يقبل الجدل..

صار يسمع عن أولئك الذين يبرعون في قدرات تفوق قدرته، وراح يميل الى معرفة المزيد، ليستطيع ان يتغلب على عواقب تصادفه، ليست

بحسبانه، وكلما بات تمكنه اقل منهم سوف يكون تابعا ضعيفا يسبقه الآخرون الى ما يصبو. ثم بدأ يتصل، ويعزز من حلقات علمه، فكل ما حوله على الارض مكتوب، وما مكتوب ومدون سوف يسهل عليه الحصول عليه، راح يسافر اليهم، يستزيد منهم معرفة، ويزيدهم بما في افقه من خيال، صار يعود الى نفسه كثيرا، ويتمكن من هذه التجارب ويطورها نحو اداء افضل، راح يجمع ما يعرفه، ويدونه في دفاتره، ويدون للآخرين طرقه الخاصة في اختراق هذا العقل البشري المذهل، الذي لم يستخدمه من حوله، على امثل وجه، وثمة من يجهله، ويجهل امتداد تلك الخيالات، ويريد لها ان تسكنه، ان يبقى محتفظا بها، لان غيره استطاع ان يرسم له مستقبلا لخياله العاجز، ان يحلق عاليا وفق ما يراد له، وليس كما يريد.. يحلق في خصوبة صانع

ماكر لمساحة عظمة الخيال، يحلق تحت جناحين رؤوفين يظن بأن صاحبهما له القدرة الكبرى، المطلقة، ولا يعرف بأنه منظم خيال يقوده بخياله، وبأفكاره الخفية الفطرية، لأنه يريد ان يبقى محدود الخيال، وان يبقى تحت من يرسم له احلامه وفق ما يتمنى ولكن بخيال القادر الاخر.

كانت "امي" تدرك ما يدركه، ولكنها بقيت تخاف عليه، من مغبة التماهي مع تلك المهنة الغادرة، تتابعه، ولا تستطيع ايقاف اندفاعه، وهو يصل الى اخطر المناطق خطورة، حيث التفت حوله داعمة اياه مجموعة طامعة من الراغبين في استثمار عمله، وتحويل مواهبه الى عوائد مالية تصبّ في مصلحتهم. اخذوا بيده، يدعمونه، لانهم وجدوا فيه المؤهل الذي يخدمهم. صار يمضي في عمله، لا يعرف التراجع، تحيط به جوقة تعرف ما عليها فعله، توسع له الطريق وتدعمه بإشاعة اخباره الخارقة التي باتت تظهر للناس بانها تفعل كل مستحيل، وتنشر اذرعها في مختلف الاصعدة وتعاظمت مقدرته، كأنما نجم يرتفع عاليا، والناس من كل حدب وصوب تقصده، من بعد ان جعل المستحيل الذي في احلامهم قريبا وراح يقرب الآمال العظيمة لمن حوله في كل ما يريدونه، ان يكون.

بقيت "امي" معه كزوجة مخلصة، تتمنى ان يعدل عن الطريق الوعر، تنبهه، لكنه بقي مندفعا، سائراً، على سكة، ليست سكته، منزلقا الى دوامة تبتلعه.. تلك المنظومة القديرة، تسارع في زرعه في تربة مناسبة،

والناس تتناقل اخبار بركاته، ويكبر، لا يقبل التراجع، حيث صار للموضع اساس، يتواصل في التصديق، ويتثبت في العقول، من بعد ان اوجدت كادرا ينذر نفسه لها، من اجل ان يستميت ليثبّت بمن حوله القناعة التامة ان الامر حق، لا يقبل الجدل، ولا يقبل الا بصورة خيالية كأنما حقيقة دامغة. ذلك الامر اسقط من يد الزوجة التي تخاف على مستقبل عائلتها. من بعد ان حدثت خوارق الساحر التي تفوق قدرة الانسان العادي المقدر له قدره، وصار مساقا يمشي دون ان يحيد عن المقدر له.

بقيت تعاتبه من اجل مستقبلها معه، اضافة الى ذلك حقيقة تعمدت تشويه سمعة اهلها، ودينها على وجه الخصوص. صار يكسب المال

الأكثر، بالتمادي، ولم يكن لديها دفاع عن ذاتها وقيمتها؛ بدأت تعارضه سرا، بينه وبينها:

-"الاحتيال، والضحك على الذقون.. ليست مهنة"...

ويبرر لها دائما:

"لم اجبر احدا على ذلك فالناس هي التي تأتيني، وتطلب مني ان افك لها سحرا متعاظما في عقولها، وكأني العارف المتيقن بكل اوهامهم"..

صرتُ اكتشف بان "امي" كانت تناضل حنينها الى ذويها، وتفتقدهم، كلما صارت اخبارهما تنشر خنادق فيما بينها وبينهم. لا يمكنها عبورها، بات في غيّه خاذلا لها ولا يلتفت، بعد الانكسارات الحقيقية التي طرأت في اعماقها.

كنا طفلتين عاجزتين على تسويه امر بذلك الغور البعيد من دواخل "امنا"، والتي كانت تدافع في قرارة نفسها عن خيبتها في حبيبها. كذلك عن جميع موروثاتها العائلية، لأنها تفهم، ان السحر احدى ادوات حروب الاديان، حيث سمعة السحر الشيطاني تشوه من ينشط في محيطها، وتجعل منه، وحشاً يلتهم كل الخير بالشرّ..

اكتشفت في داخل كلّ منّا كائن منفرد برؤيته، ينظر بعين ثاقبة الى المحيط، يتحسس وفق ما ينعكس عليه العالم من أضواء، كنتُ أرى كل شيء بلون زاهر، وإن تدرجت ألوان النضج. بقيت أحافظ على ما كنتُ أريده - ان يبقى في حدائق ذواتنا القصية.

ارى نفسي فراشة ضوء، أُحلّق ضمن أبعاد أبعد من تلك المساحات الضيقة التي تجول عليها قدمي. أرى، أتنفس عميقاً، أسمع انغاماً اعذب من طبيعتها. يرجع الصدى بأعذب مما كنت اسمعه. (أضُمُّ عليها أَضلُعي، وكأنها من الذُّعْرِ، نشوى، أو تطرّقها لَمَمْ، أميلُ بها ميلَ النزيفةِ مُسندًا إلى الصدرِ، منها ناعمَ الصدرِ، قد نجمْ)[٢]

[٢] ابن هاني الأندلس

٤.

بعد شهر واحد من ترمل "أبي"، عادت عائلة "العزوز" لتجمع شمل عائلتها مع عائلة ابنها البار المكونة من ابنتيه الوحيدتين، وجدوه يشترط عليهم:

- "ان يقبلوا له الزواج بعد فقيدته من أربع زوجات"، ولم يكشف سرّ طلبه الغريب لعائلته، ولا لنا – أبنتاه- سبب رغبته تلك.

لكني، وبعد حين بعيد؛ ايقنت من ان هناك بين الأكمة، وما وراء الأستار، منظومة خفيّة، مُتعلمة، ونافذة قد فرضت على "أبي"، ما يفعله، بعد ان وجدته، بمواصفات نفسية تؤهله ان يكون أحد الاشخاص الملائمين لمشروعها، إذا كان شخصاً عادياً في ظاهره، ولا يثير الفضول، وقد اختاروه ليكون واحدا منهم، في الوقت المناسب، ليعمل معهم العمل المناسب..

تلك المنظومة القديرة تستطيع أن ترى المستقبل مثل ورقة مكتوبة، فتهتم بالمستقبل، تتفهمه، لأنها تريده. ساعدته في جمع ثروة وتنظيمها..

- "ثروة كبيرة تكفي لعشرين زيجة".

بعد ان صار له العديد من المساعدين، والمستشارين الذين يمدونه بخبراتهم، جعلته يتخذ القرارات الصائبة في كل خطوة. فقرر ان يرسم بيت المستقبل الذي يتسع لأحلامه، وطموحه وفق مشورتهم المشرفة على مستقبل، مضمون.. ان تكون له صوره تجعله، محبوبا اكثر بين المحيطين به، فصارت اخبار نجمه تتصاعد، وتسطع مع كل الذين حوله، كواجهة مستقبل مشرق..

وفعلا تمّ تزويجه في الاسبوع الاول من اكتمال بناء البيت الذي صممه هو على هواه وسماه "القصر"، واختارها صغيرة في الرابعة عشرة تكبرني بعام واحد، وتصغر شقيقتي بعام واحد.. اسمها "شيخان" ابنة احد اخواله، امرأة طويلة لها حاجبان مقوسان يشع من جبينها صفاء، يتوجها شعرٌ اسود غزير، ووجه مدور تشع منه ابتسامة ساحرة. جلبت لنا الهدايا، لأجل ان تكسب رضانا، واجزلت لنا بالغ الود، ونزلت في بيت اكبر ملاصق لبيتنا الاول، حيث كانت نوافذه الكبيرة المشرعة تشرف على نوافذنا، وبعد اسبوع من زفافه الاول، مباشرة، دخل على المرأة الثانية، وهي ابنة احد الذين انقذهم من ألمٍ ألمّ بعائلتها كلها، وانقذهم منه، وكأنه وقاهم من بقية امراض لم يعرفوها. واسمها "نهال". بعدها بأسبوع دخل بالزوجة الثالثة التي كانت خرساء، ولا تقدر على نطق حرف واحد، وهو الذي اكتشف لها

عيبا خلقيا في اذنيها جعلها لا تسمع وكان ذلك سببا لخرسها، وطلبت من اهلها ان تنزل خادمة في بيته مدى حياتها، وهو من قرر ان يتزوجها لما كانت عليه من جمال، اما الزوجة الرابعة، اختاروها ارملة احدى اصدقائه. لكنها توفيت فيما بعد، وبقيّ كلما يشغر مكان لواحدة، يملأه بغيرها..

تدريجيا صرنا نشعر بأنه صار بعيدا عنا، كأب يظللنا بالعطف، والحنان كما كانت امنا تذوب من تلك الهوة.. كانت "امنا" تجمعنا ولم نكن نشعر بغيابه ان غاب، خصوصا ايام كان يسافر كثيرا بحثا عمن يعطيه من علومه لتزداد خبرته.

كان قد اكتمل الشهر وأكمل معه مراسم زيجاته الأربع اللواتي توزعن على بيوت صغيرة داخل "القصر" الكبير الذي لم شمله مع بقية اهله ايضاً.

٥.

بمرور الايام اصبحنا انا وشقيقتي في غربة عن "ابي" الذي لم يتنبه للهوة المتسعة، بيننا وبينه، كأنه يتعمدها..

صار لا يريد ان يلتقي في يوم من الايام ويتجنب ان يسألنا عن حاجتنا لضمة حنان، منه نريدها، حيث باعدت بينه وبيننا زيجاته الجديدات، واخذ يوزع حياته بينهن. ولم يعد يقترب من بيتنا الملاصق لبيوته.

وبقيت "جدتي" تقوم برعايتنا لمدة عام، حيث توفر لنا متطلباتنا المعيشية، فقط، وكنا في عزلتنا نسمع من بنات عمومتنا يسموننا "بناتُ الصُبْيَّة"، ولم يكن يقبل "ابي" ان نعمل او نساعد في عمل البيت سوى بيتنا، اذ خصص فريقا من الخادمات، والعاملات، والحارسات.. كلهن يقمن بواجباتهن، وكنت انا وشقيقتي – محاطتين بوصيفات وملبسات وخياطات، مثل اي اميرتين في القصص الموزعة بين ثنايا الكتب القديمة، وكان غالبا ما نسمعه يقول:

- "انهن بناتي ولا اقبل عليهن اي حيف من بعد وفاة حبة قلبي".

اصبح ذلك اشبه بسور خفي بيننا وبينهم، ولكنه سور عالٍ، استطاع ان يمنحنا عزلة، شيئا فشيئا حتى بعد وفاة جدتي، صار يصلنا الطعام، لنطبخه بأنفسنا او لنتعلم طبخه واحيانا تتفنن به شقيقتي التي تعلمت

الطبخ لوحدها، وراح "ابي" يسدّ لنا كل حاجاتنا من الضروريات من بعيد، اذ كلف احد العاملين لديه، ان يقوم لنا بالتسوق، ونطلب منه ما نحتاج، بينما بقيّ "ابي" في بيته القريب، يدخل في زيجة اخرى تلو الاخرى، لينجب الولد ولم يفلح، نراه ولم نكن نراه، يرانا، ولم يكن يرانا.

٦.

صارت زوجه "شيخان" التي تصغره بخمسة عشر عام هي من تدير له دفّة شؤون خدمات القصر، بعد وفاة "جدتي"؛ اذ تفوقت على بقية زوجاته الاخريات، في الشؤون البيتية، واظهرت عدلا في أول الامر، بين اهتمامها بنا، وبيوته التي توزعت فيها نساؤه الأخريات.

صار النسوة الباقيات يحسدنّها، ويتطلعن اليها ليتعلمن منها كيفية استخدامها فتنة المرأة، وهي تستحوذ على لب رجلهن. حيث لمع ذكاؤها، فأظهرت فطنة اكبر من سنها، بالرغم من انها لم تكن تكبرني إلا بعام واحد، وتصغر أختي بعام.

كانت الوحيدة من بين زوجاته الاخريات التي اختارتها جدتي، وبعد انقضاء شهر واحد من الحداد حسب، طلب "ابي" ولم ينتظر، اكثر، اذ بنى قصرا كبيرا، لنا، وبداخله مقسم الى عدة بيوت صغيرة يتكون كل واحد منها من غرفتين كبيرتين، كنت أنا وأختي نستقل بهما، وبينهما صالة صغيرة، وحمام ومطبخ صغير فيه كل المستلزمات البيتية من اثاث وادوات..

كان "ابي" يهتم كثيرا بالأشخاص الذين يظهرون مهارات فارقة، كالحفظ، والبداهة، والنباهة، وكان يدرك جيدا، بأنهم هم الأحق من غيرهم المستحقون في ان يتبوأوا القيادة، والحياة، لما يمكنهم ان يخدموه على خير ما يطيب له.. صار لديه ارشيف دقيق عن كل ما حوله، ارشيف في ما كانت عليه الدنيا قبله، وما حصل من تغيير، صار يتابع العالم، وهناك من يقرأ له اخبار احدث ما تخترعه البشرية، وصار يريد متابعة كل شيء بنفسه، ثم انتقل ليدرس جيدا ما سيكون عليه مستقبل نظامه..

كانت جدتي قبل "شيخان"، تدير شؤون العائلة. ايام كان زوجها حيا. ولكنها بعد ان هدّها المرض سلمتها المسؤولية، اذ كان بينهما ودّ كبير، لأنها هي التي اختارتها الزوجة الاولى لابنها بعد "امي". بقيت له مثال الزوجة الصالحة والطيبة والتي لم نلق منها الا الوجه

البشوش السمح. ولم نرَ منها او نسمعَ بأنها تريد التدخل في خصوصياتنا، لأنها كانت محظية زوجها على الرغم من زيجاته الثلاث.

كانت اكبرهن، ولكنها اكثرهن ذكاءا وفطنةً، وحذرا، وألمعهنّ نفوذا بين بقية أهله وذويه، ولكنها لم تحاول يوما ما أن تفرض نفسها وتعارض بسلطتها رغباتنا وحريتنا.

كأنما كان اتفاقا بينها وبين والدنا أن تتركنا له، ونتركها له.

لكنه لمَّ عنا طرفه، ولم يقترب منا، وكان لها ما يكفيها لتكون ندا مع بقية زوجاته الاخريات، وحرصت على ان نكون لها الجيرة الطيبة.

٧.

كان "مجبل" قد بلغ عامه الأربعين عندما غادرته "رضية المنيف" الى العالم الآخر، حيث بدى كالنمر الجريح الذي بقي يعاني من فراغ الأنثى..

هكذا بدا لي أول الأمر، ضحية، ذهبت قربانا للتحديات التي كانت بين الأهل، وأصبحنا بعدها من أكبر الخاسرين. ثم عاد بنا، وبنفسه إلى دائرة أهله، ولم استطع ان اعرف الى يومنا هذا، من كان قاتلها سواء من اهلها او من اهله. أكان وعدها المحتوم، لما كانوا به يوعدون. بعد تنكرها لهم، ام الاهل الذين ارادوه ان يعود الى مكانه بينهم.

بعدما بات اكثر غنى منهم وشاع عنه انه صار يشتري الكثير من المزارع المحيطة بمزارع ابيه، وصار من بين اصحاب الثروات المتنامية. كذلك مهنته تنامت اكثر، وصارت تدور حوله الحكايات الكبيرة، وأشاعوا عنه المحتكم على جيش جرار من الجن، وكل من طلب مساعدة منه، لا يخيب، ويتمكن مما يريد ولم يخذل احد.

اختار مكانا واسعا بين مزارعه الكبيرة والعديدة، وأنشأ قصره الكبير، وصمّمه وفق حاجاته وصار مكونا من سبعة ابنية متجاورة، لنسائه الأربعة القادمات، كل واحدة بناية ولابنتيه بناية، ولأمه بناية، واخرى

كبيرة تتصدر جميع البنايات اشترط ان تكون واجهة وتكون خلفها جميع الابنية، فهي الواجهة التي يستقبل بها المحتاجين من الناس، ولأجل ان ينام في داخلها جميع العاملين معه، وهكذا فرض على الجميع مساحة من الرهبة، جعلت منه السلطان النافذ..

وبعدها توسعت من حول القصر، مساحات صارت مسكونة، كثرت فيها البيوت المتحلقة حول القصر الكبير، وتم شق شوارع بينها وصارت منظمة بعد أن أشرف بنفسه على ترتيبها، وفق ما يريده "أبي"، وصار القصر مركزا لها..

أخذت الشوارع تمتد شرقا وغربا، جنوبا وشمالا وتنظمت العديد من الاسواق. وأكثر من بيوت العبادة، واخذ يغدق عليها من الخدمات التي ترافق كل عمران، وصارت الأمكنة المحيطة ليلاً كأنما تعيش كرنفالاً لا ينطفيء..

٨.

منذ اليوم الاول الذي دخل الصبي "جميل" الى حياتنا أنا وشقيقتي، أحدث انقلابا قدريا في حياتنا، وبقي ذلك الانقلاب يغير لنا مجراها طوال عمرنا.

ابن الفلاح "شدري" الذي كان يشرف على حدائق البيت الكبير وحراسه. عيّنه "أبي" بسبب تفانيه في الوفاء والإخلاص، وقد استأمنه ابي على تلبية حاجياتنا من مأكل وملبس وتدريس، إذ كان يحضر الينا انا وشقيقتي نسوة يعلمننا كل الدروس المدرسية، وجعلنا نتابع المناهج الدراسية، وبعدها أكمل افتتاح مدرسة قريبة، وبقينا ندرس فيها كبقية بنات الذين يشاركوننا المكان، ومن بينهم "جميل" بالرغم من كبره، اذ كان بالغاً. كأنما فاتته الدراسة، وحاول ان يلحق بها...

صرنا نراه انا و"سلوى" بعد وفاة "جدتي"، حيث كان يحضر مع أبيه، منكس الرأس، لا يرفع بصره الى اية واحدة منا، يكبرنا بأكثر من عشرة سنوات، وفيما بعد كثف حضوره الينا بعد ان تشعبت مهمات والده، وتدريجيا اخذ واجبات أبيه دون منازع، في احضار حاجياتنا من السوق، ولم يكن ذلك بعلم "أبي"، وعندما علم بذلك منعه من ان يقوم بمتابعة طلباتنا البيتية، وطلب من "عمتي"، ان تجد لنا المرأة المناسبة، التي تقوم بتلك المهمة..

٩.

وفيما بعد عرفت أن "شدري" لم يكن والداً لأحد، لأنه مازال عازبا أساساً، لكنه كان ربيبا له، حيث وجده صغيرا ودرويشا بين الدراويش الفقراء، المتحلقين في دورانهم حول آمال قد أضاعتها لهم الأيام، وبقي بينهم أحد الذين نذروا أنفسهم لخدمة "ابي" ومكانته.

حتى صار ينظم المكان بين المنظمين، ويؤمن لكل محتاج حاجته، وكان كل وافد يأتي ليستقر بين الوافدين ويكون واحداً بين الجموع، حيث يجد المأوى الأمين والمأكل المنتظم. ولا يطلب منه سوى الولاء المطلق لصاحب المكان، ويتعهد ان يبقى وفياً له مادام تحت سقف يحميه من التشرد، والضياع، ويكون واحدا من جنوده المطيعين، يأتمر بأمره، ويسهر على حراسته، مادام يشرب من شرابه، ويطعم من طعامه، وقد تقاسموا فيما بينهم، مهام نقل المياه الصالحة للشرب، ونقل المؤونة الى من يردد عهد الولاء المطلق، وتم وضع برنامج يمتحن فيه الولاء، وان يكون مستعدا لتنفيذ ما يطلب منه، مهما بلغ الامر من صعوبة، او حرج، حيث يكون كله استعدادا لما يصدر، ورهن طاعة لا يسأل ردّها.

كانت تجري عليهم الصدقات الوفيرة لمن نجح في اعلان درجة وفائه. ودخل في كشف دفتر الضيافة الدائمة، حيث لهم الحقوق الاكثر، والصلاحيات الأنفد، ويغدقون على من يمنّ عليهم بالدعاء، وأخذوا مكانا مستقلا بين الأمكنة، التي كانت قد اعدت بيوتا يمكنهم فيها جلب أزاوجهم، او يتزوج كل راغبٍ براغبةٍ أثبتت ولاءها المطلق.

وصار يؤمّن لهم العمل الإضافي المناسب لمن يريد العمل، كما ترك لهم حرية تعلم المزيد من المهن التي تساعدهم وتؤهلهم لمساحة العيش في العوالم الأخرى، وقد ترك لهم حرية ما يلبسون وحرية ما يأكلون، كما بقي يرحب بكل قادم باسمه مدرجا اياهم كل في دفتره، وكأصحاب كرامات لا تنفد، مع كل الذين يدعون له بالخير، والبركة..

١٠.

كان كل من يرى "سلوى" لا تفارق يدها الكتاب يظن أنها مخلوقة، ولا تعرف شيئا سوى ان تقرأ، حيث كانت بطبعها خاملة التعامل مع المحيط، والمجتمع، تصحب كتابها معها الى اي مكان تشغله، ففرض طبعها حضورا ملفتا.

كانت "جدتي" تشبهها بدمية..

- "عندما توضع في أي مكان، من دون ان يطلب منها ان تتحرك فإنها تبقى راكدة فيه الى الأبد، وتنتظر من يأمرها، اذا جاعت نامت على جوعها، ولا تسأل عن حاجة، وكأنها تستحي حتى من ظلها".

تؤكد جدتي بأنها تشبه والدها بكل طبعها، فهو ايضا كان في اول مراحل عمره، بمثل طبعها، وكانوا يظنونه ممسوسا، وكان ايضا يميل الى العزلة، ولا يشارك اقرانه الأولاد العابهم، ولم يكمل دراسته على أحسن وجه، حيث كان الابن الوحيد، المدلل، ولم يترك ليعمل في اي عمل.. حتى جاء اليوم الذي أخذته منهم "رضية المنيف" ثم قلبت أحواله بالسحر، وأخذت طباعه تتغير، وكأنما جعلت منه إنسانا آخر، حيث تفتقت مواهبه وتنبهت حواسه، وبات يهتم بنفسه ويظهر

أناقته، وكأنه لم يعرف في حياته امرأة غيرها.. بقيت تقول بأن الحب إن دخل قلب انسان، فإنه يغير أحواله، يغيره ويجعله انسانا آخر..

كانت تؤكد لي "حالما يدخل الى حياتها رجل تحبه"، و"ليس المهم ان يحبها، يومها يكون شأنها كبيرا مثل أبيك"..

كنت أتشجع فأسألها عن نفسي لتقول:

- "أنت على العكس منها، أنت متمردة، لا ترضين بالعجب العجاب"، و"أغلب الرجال يفضلون المرأة الطيّعة، المستجيبة، لا أظنك تكونين مثلها يوما إلا عندما تنحّين كبرياءك جانبا"..

- "أختك طيبة جدا لدرجة أنها تجعل من الآخرين يطمعون فيها".

كأنها تتطلب مني العناية، والمتابعة الدقيقة، على الرغم من تشابهنا، كأننا توأم.. لكني كنت اراها "تحمل جمالا طاغيا يفوق جمال أهل الأرض"، إلا أنها كانت بلسان ثقيل، بطيء اللفظ، وكأنها لا تعرف سوى قول "نعم".

جاءت تأكيدات "أبي" حولها "أن لا أتغفل عنها وان ارافقها الى أي مكان تذهب اليه، لأنها بحاجة الى من يراعيها، ويذكرها بما عليها ان تقوم به او تفعله"..

كنت اتابعها، واخاف من هذا السكون المريب في طبعها، وان اشرح لها، ما يتوجب علي إفهامها، لكني لم استطع ان اتقدم معها حيث بقيت في محل لا يقبل التغيّر..

١١.

صاروا يطلقون على ابي صفة "المجبل"..

كأنما غاب اسمه، وحضرت صفته، يشددون على تفخيم الاسم - "المجبل"..

بدأت استشعر المحيط من حولنا، حيث تدخل اليه تيارات هواء غريبة غير التي كنا نتنفس منها في السابق، كأنما اخذت الناس من حولي تتحول الى اصنام، لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم.

الكل كان يحرص على هدوء في كل خطواته، وثمة صفاء بات لي كأنه مرسوم بريشة فنان مقتدر، صاروا مغمورين بطلاء خاص.. كأننا دخلنا عالما جديدا، تغيرت حولنا مجريات خفيّة بالكاد نشعر بها، أضفت علينا توترات لم تكن تتبين في السابق. اذ تعمدوا ان لا نشعر بها.

تغيرات سريعة كانت تجري على قدم وساق. في كل ارجاء القصر، صرت أسمع:

-(حيث امر المجبل..

حيث اوصى المجبل).

تدريجيا صعب علي ان ارى "ابي"، ان احدثه، وان اراه حاضرا في حياتي.

انهمك في عمله، وصار يتابع كل شيء بنفسه. تعددت الحارسات كموظفات داخل البناية الخاصة، وتواجد العديد مثلهم وجميعهم من الموظفين المتأهبين لمتابعة كل صغيرة وكبيرة، كان اغلبهم منكبا في يقظة متابع ما يدخل وما يخرج. اراهم يتفانون من اجل ما يطلب منهم، تنفيذه، وآخرون يدونون في تقارير تلو الأخرى عن تفاصيل كل التحركات..

- (ارعيتُها سَمعي وقد راعني لها صهيلُ المذاكي، قبلَ قرقرةِ النّعمْ)[٣]

[٣] ابن هاني الأندلسي

١٢.

اتابع "أبي" من بعيد، منهمكا في عمله، حيث لا اراه مباشرة، ولكني استشعر ظله، الشاخص، المطبوع على كل مكان.. كأنما اود ان ألتمس من وجوده، دفئاً.. وجدته قد قسّم العمل على اغلب الناس، وخاصة الذين يثق بهم ثقة تامة.

تصدرهم "شدري" الفلاح، جميعهم، بعد ان اوكل اليه ادارة جميع الحلقات الخدمية.. اراه متفاخرا بانه المسؤول المباشر، من بعد ان اسقط من يد "شيخان" كل ادوارها القيادية، والتنظيمية وباتت امرأة بلا مهام، ولا سلطة على النساء الباقيات من بعد أن أثبت بأنها تمنح لنفسها ارقى انواع العطور، ولم تكن توزع بعدالة الملابس الداخلية على بقية ضرائرها، وتأخذ من الشراب الجيد، والفاكهة الجيدة، لنفسها اكثر من غيرها، وقد اقصاها المجبل عن منصبها لتبقى واحدة بين النساء الاربع[٤].

[٤] (أسائلُ عنكِ أنفاس الخزامى فتخبرني بكِ الريحُ العليلُ) – ابن الزقاق

١٣.

سبق وان عرفت بان الـ"مجبل" قد نشأ وحيد أبويه، وخلّف عقدة نقص في قرارة نفسه انه من دون اخوة يساندونه، يشعر دائما بالضعف من دون مساندة احد، وخاصة خارج بيته، حيث تنامت عقدة النقص لديه، وجاهد لتحولها الى قوة داخلية، جعلته يخطط لأحلامه كمن يرسمها بدقة القابض عليها.

لذلك قرر ان يحقق حلمه في ان يتزوج كثيرا لينجب بلا حدود حتى يكون عنده جيش من الأولاد يحملون اسمه، ولكن الله لم يمنّ عليه، بعد ان وهبه المال الكثير والسلطة الواسعة، فلم تنجب له جميع نساءِه، عدا البنات.. بالرغم من ان كل واحدة تسابق الاخرى في الحبل، وفي كل عام يزداد عدد البنات، ولم يحظ اي رحم منهن بجنين ذكر.

١٤.

تغيب عن ناظري "أبي" وصرت لم اعد اراه إلا لماما، من بعيد، كأنما تغير شكله وبات بكرش كبيرة، وصار يضع نفسه تحت عباءة سلطانية، ويتوكأ على عصا، اختلف كثيرا عن ما كنت أراه، وكأنه رجل آخر، ارتسمت عليه ذقن مخضبة بالحناء، وحاجباه بقيا كثين وباتا يظهران قسوة وصرامة على ملامحة..

كنت في كل يوم اريد ان اراه، وان اكلمه، وان اقول له ابي لم انت نسيتني. صرت اتجول في الليل، وحيدة، عسى أحظى بلقاء عابر به، اثناء خروجه من مكان الى اخر، ولكنه صار يتحرك بالسر، وصار يتخفى كثيرا، وتبين لي انه قد غيّر مسارات طرقه التي كان يمر بها، وصارت له ممرات سرية خاصة به..

صرت ارغب ان أبدد ذلك الافتقاد اليه، ابنة تريد ان تقابل اباها، جعلني أدقق النظر في الأحوال التي تجري داخل القصر، وضمن حدودي، جعلني، اتابع من خلال الشبابيك، كل ما يمكن ان تراه عيني، كانت الأيام تمضي بي، وأختي أشبه بكتلة بشرية صامتة إن سألتها قالتها - "لا أعرف" وإن خيّرتها قالت - "موافقة" على أي

شيء وكأنها لم تكن تشاركني الحياة، وتشاركني الطعام، حيث لم تكن حتى لتأكل غير ما يسد رمقها، وفيما بعد عرفت بأنها كانت تعاني من صدمة فقدان "والدتي"..

صار ابي يغرق في تفاصيل عمله نهاراً، ويأتي ليلا لزيارة احدى نسائه، وصرت اعرف بأني عندما كنت اريد ان اراه، أنتظر كل اربعة ايام، ليأتي الى زوجته الأولى التي كانت بنايتها جنب بناياتنا، وشباكها قرب شباكنا.

ملاحظتي جعلتني أعرف بعض الأسرار الخفيّة، من فنون تمسك النساء بالرجال، وصرت ارى الكثير عندما يكون في غرفة الزوجية مع زوجته الاولى، وعرفت فيما بعد بأن الزوجة عندما تريد ان تحتفظ بزوجها فإنها تدعه يدخلها فتغلق عليه ساقيها..

رغبتي تلك تحولت الى هاجس غريب، صرت مسكونة به، ان اراه، ان اتحدث اليه، كثيراً، وكثيرا؛ قبلها اساله ان يمضني قليلاً، وان اتحدث معه بشأن أشياء أخرى، وبشؤون اخرى، واخرى، ولعل شقيقتي، ايضا، كانت مثلي او اكثر مني تفتقد فراغه الكبير..

كنت احسب اليوم والثاني والثالث، كي أضع نفسي ليلاً تحت شباك "شيخان"، وأتابع، الجني الذي تخرجه من رأس "مجبل"، أضحك من ذلك، لأني صرت على يقين بأن "والدي" قد وهب كل عقله لـ"شيخان" المرأة الداهية، التي تعلمت من اجله كل فنون الذوبان والانصهار الأنثوي لتستملك الرجل، وتجعله أسيرا لها وحدها، بالرغم من امتلاكه ثلاث نسوة اخريات، كان ينام عندها، ويبقى ينام عندها، اذ اخذت منه قلبه، بطرق اقوى من السحر الفتاك الذي كان ابي يمارسه على من يجهل.

كنت على بيّنة بأن سحرها هو السحر الأنثوي الذي يضيع تحت مفارقه اعتى واذكى الرجال قوة ومهابة وصلابة.

تبين لي ان هناك سعيا محموما بين زوجاته الاربعة، جعله لا ينفك ليلة من الاخرى. بعد ان جعلته الظروف ان يكون في اغلب نهاره يعمل وفي بقية ليله، يكون سهرانا في جناح احداهن، بعد ان تجسست الواحدة على الاخرى، وصارت كل واحدة منهن تطور خبراتها الفنية، في كيفية جذب الذكر الى انثاه، اذ تعلَّمن الدرس الأول من "شيخان" الذكية، المغناج، الدؤوبة على استنهاض رغابته الرجولية الكامنة في أعماقه، برغم كل تعب، وكل همّ..

"الدرس الذي لا ينفع اليوم، قد ينفع للغد، الدرس البشري مفتوح على مدى الحياة، ويبقى درساً الى ان ينسخه درس جديد يكون اكثر حيوية ليومه الجديد"...

كنت أتابع تلك الحمى، وذلك الاشتعال الذي صار به "المجبل" تاركا مساعديه يقومون بأغلب أعماله الجانبية، إذ قرر أن يستريح من متابعة كل شيء بنفسه، حيث صار كل عامل منهم معرضا للثواب او للعقاب، وفق عمله الذي يصب في عجلة نظامه التي صار الخوف يجعلها تسير بانتظام، والى امام، لأن الجميع صاروا يخافونه ويطمعون بثوابه. كرس وقتا لعطاء كل مبدع حقه لأجل ان يعزز مسيرة النظام القوي الصلب وجعل كلا منهم يتقدمون في مناصبهم، فكل مصلحة لا تصب في تعزيز النظام، جريمة لا تغتفر، ويعاقب عليها اشد العقوبات، ليكون لغيره عبرة.

كانت تلك لعبته الفطنة لأنه جعلهم يسعون كالمحمومين، العارفين بمصلحة نظامه. حيث كان البعض يعتقد بأن المستقبل مرهون بمستقبل رأس النظام. وراح يتنافس العديد منهم على كشف اسرار بعضهم البعض، خصوصا تلك الأسرار التي تقويه على أعدائه، وصار الكل يخاف من كل الذين حوله ولا يسمع حتى نفسه، خوفا من

ان يتعرض الى وشاية تؤدي به الى ما لا يحسد عليه. بعد ان صاروا يسعون للتباهي امامه بأنهم الاكثر اخلاصاً، والاكثر تمسكاً، فرضاهُ يعني العطايا المتزايدة، فهو رأس النظام، ويمنح ما يراه مناسبا من خزينته لمن يراه مناسبا، ومبدعا في تفانيه من أجل مستقبله الشخصي تحت مصلحة النظام كله. هكذا بدأ حضوره بينهم أكثر من قبل، حضوره كرمز عظيم لنظام عظيم. صار موجوداً في كل مكان او صاروا يعتبرونه موجودا، بينهم، ويراقبهم، مادام نفسه الحاضر في كل غياب..

كلهم صاروا يرونه قريبا منهم، وحاضرا فوقهم، على العكس مني، ألا أنا وشقيقتي كنا نبحث عنه، ولا نراه، فنفتقر إلى حضوره الحق[٥]..

[٥] (فيا رب إذ صيّرت ليلى هي المنى، فزني بعينيها كما زنتها، وإلا فبغضها إلي وأهلها فإني بليلى قد لقيت الدواهيا) - مجنون

١٥.

بات "جميل" هو الرجل الوحيد الذي يمكنه ان يحضر ويستطيع المرور إلينا بسريّة عبر غرفة "شدري"، أو عبر ممرات لا أحد يتقن المرور عبرها غيره، الرجل الوحيد، والمناسب كي أضع فيه ثقتي، والذي يمكنني التحاور معه لمعرفة كل ما كان يشغلني.

وخصوصا كنت قد سمعت بأنه كان من بين الذين أودعوا "رضية المنيف" مثواها الأخير.

كان ذلك يثير فضولي، ويجعلني أقترب منه اكثر، تلك التفاصيل التي تثير فضولي، كمحاور، قد أقصيت عني بتعمد، وباتت محاور غائرة، طمرها النسيان، ولم اصدق ان اجد عنده بعض الخيوط التي تجعلني عارفة ببعض خفاياها. لأنه بين اول المقربين الى "شدري"، العارف بكل ما اريد ان اعرفه.

صارت تفرض علينا وصايا صارمة لا تسمح بالمرور من جناح الى جناح، ولا احد بإمكانه ان يعترض او يناقش في امر ارادة "المجبل".

واخذت الامور تطال التجوال، ومواعيد اخرى لغلق جميع الابواب على ساكنيها، وصار البعض لا يعلم ما يجري وراءها..

كذلك تغير الحال حيث صار يصل الى مسمعنا اصوات إطلاقات نارية، أخذ الجميع يتأهبون للدفاع عن حصن القصر، وسمعت بأن البيوت التي حول القصر ازدادت وتكاثفت، وراحت تحيط به من كل جانب، حيث كثر المريدون الذين يستظلون تحت حماية "المجبل"، وصار اسمه كبيرا أكبر مما كنت أسمع به، وكلما أسمع اسمه يلفظ برهبة كنت أزداد فخرا بين النسوة اللواتي يخدمننا، ولأني ابنته، عندما أمرّ بين العاملين في خدمة القصر، يكون لي شأن واحترام وتقدير فأنا أحمل اسم المجبل، ومن نسله..

كنت أجهل ما كان يحدث، حيث كنت ألتمس، كل ما يحصل من تغير، وأعود إلى شقيقتي لأتحدث إليها، فأجدها ساهمة، كعهدي بها، مبتسمة، تسمعني ولا تراني، ولا تشاركني..

١٦.

متابعتي جعلتني أتحين الفرصة المناسبة، ولم يبق امامي الفرصة التي يأتي فيها لمراجعة زوجته "شيخان"، حيث تقيدت حركتي، ولم يعد امامي الا تلك الفرصة، والا ذلك المكان.

لكني لم احظ الا بما لا يجوز لي البوح به. اذا كنت اشاهدهما، في خلوتهما، فأغمض عيني عليه، وكنت لا اريد ان اراه، لأنه صورة لا اريد رؤيتها. صورة ترسخت في عقلي فيما بعد، على انها عملية استملاك انثى لذكر، بما تمتلك من قوة انوثة..

كنت ارى، وتصيبني هزة، خوف وتردد، في ان اقطع هذا المشوار، او مواصلته، بتفاصيله، ان ارى من بعيد، وعيني ملتهمة لكل تلك الصورة، اما أذناي فكانتا هما اللتان تكملان الصورة، الفحيح الذكري، الانثوي، المختلط، كأغنية عظيمة توغل في احشائي، وتزيدني ارتجافا لذيذا، كان يجعلني احدق من الشباك الى حيث العمق السري، والذي بات مكشوفا بحرارة تعتريني، كانت الشفة تدخل بين الشفتين، وتدوران حولها الأعين المغتلمة، لتتبدد بأخرى يشغلها

الانضمام، فتمطره، وتجذبه اليها، ويأخذها اليه، الساق توغل عميقا بين الساقين، والأيدي تجذب الجسد الى الجسد الاخر، تلتفان حولهما أو ببعضهما، حتى يصعب التمييز بين الأصابع، ويغور كل اصبع انثوي، محاولا ان يلتقي بقرينه الذكري، الانامل المارة على الجسد الصقيل تؤججه الى صياح بلذة موجعة، الاصابع التي تنعرج على الجسد الخشن، يستعر أوارها.

يموجان في احتدام لجج حمم دافقة مليئة بالالتحام، كأنما الجسد يستمد قوته من الجسد، ويواصلان رحلة نحو البحث عن لمسات اشهى، واوغل فتكاً، كأنما نار تضيء بين جوانحهم، اراهما، يسدلان الأنف على الأنف، وتغوص الأصابع في عمق، لتستخرج منه، اشتعالاً اكثر طيبة، وتعاود الغوص، لتستخرج من المكنون الدفين نارا اراها بلون بنفسجة تستقر فوقها، وتفوح برحيق يشربان منه، يتسابقان على ان يأخذ كل منهما اكثر من الآخر، كنت أرى ذلك الماء، وتشتعل فيّ رغبة ان أتذوقه، كأني قطعت صحراء قاحلة، جلفة، وصار عليّ أن أشرب[٦]..

[٦] (ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما قيد مغلول اليدين أسير) - مجنون

١٧.

صرت ألحظ "جميل" وانشغاله بـ"سلوى"، يتردد خفية، لكنها كانت لا تتفاعل معه، مثلما تتفاعل المرأة مع رجل، بالغ الوسامة، طيب القلب. وحسدتها عليه. لكني صرت ألفتها إليه كأنما أريد ان اخرجها من محنتها.

حتى في تلك الأيام، كانت لا تهتم بملبس، او عطر، وتواصل إقصاء انوثتها، ساهية، عيناها مفتوحتان على فضاء ممتد امامها، وتتابعه بشغف لا احد يراه غيرها، كنت احسها مثل غاطسة في كومة طين ولا يمكنها النهوض، باركة، ولا تستطيع الحراك.

"أقول لها انه الرجل الوحيد الذي يمكنه ان يدخل الى محيطنا"، أريدها ان تتواصل معه. ان اخرجها من محنتها[٧].

[٧] (تمنيتُ تقبيل الحبيبِ فجاءني وقبّلني في النوم ثنتينِ في العدِّ، فيا طِيبً اللثم عندي وبرده على كبدِ حرّى تذوبُ من الوجدِ) – ابو حيان الأندلسي

١٨.

عندما أقف أمام المرآة، أحاول تنظيفها اكثر لكي استطيع ان ارى تلك التفاصيل الجديدة التي حلّت علي، بعد ان انتقلت من سمة الطفولة وصرت اتنفس بطريقة اخرى، تبين لي بأن "سلوى" تشبهني، او انا صرت اشبهها، لا فرق، اراها امرأة طويلة بيضاء، لا تفوقني سنتمترا واحداً، وعيناها الرائقتان كأنما تشعان بريقاً لا تفتقده عيناي. وصدغان صافيان متنعمان بوقار يشوبه زغب أنوثة فائضة، وينسدل شعرها مثل شعري، مع أنه لم يكن بلون شعرى الداكن، ولا يفرق عنه الا باعتنائي المتواصل بتصفيفه، فصار شفافا أكثر منها، وجميلا مثله.

كنت أقارن صورتي وصورتها، طولها وطولي، صوتها الذي يهمس بنغمة حريرية، لأنها قليلة الكلام، وصوتي الذي شابته حشرجة حزن غير متكافئ مع احتجاجي على محيطي الضيق.

كأنما تغيرت عن المرأة التي كانت صورة منعكسة لذاتي، بتُّ مكورة أكثر، مدورة بإثارة أكثر، ودائما كنت اتذكر ما قالته جدتي مرة عن "سلوى"، امرأة متكاملة، ينقصها العقل[٨].

[٨] (هي الوجنةُ الحمراء والشفةُ اللُّميا لقد تركاني في الهوى ميتاً حيّا) – ابو حيان الاندلسي

١٩.

صرت اميل الى لقاء "جميل"، خصوصا من بعد ان كثرت التعقيدات التي فرضها حرس "المجبل" المحيطون به، المختصون بأمنه الشخصي، وصار حوله الطوق محكماً، واقرب الى اليأس حيث لم استطع اللقاء به، بعد ان صار "والدي" ابعد مما في السابق، وكلما تعقدت حوله دائرة الحماية، صار اكثر بعدا عني، وكأنما صرت اكثر نأيا عنه من قبل.

صار يمر سريعا بلا موعد مسبق، يمر سريعا، وصارت زوجاته لا يعرفن كيف يلتقين به، حيث ألغيت مواعيده، وبات بلا موعد ثابت ولا جدول معلوم، يحطّ متى يقرر له اولئك المختصون الصارمون، اذ كثرت عليه محاولات الاغتيال، حيث نجا أكثر من مرة بأعجوبة، من بعد أن تمرد عليه بعض الذين اختلف معهم في توزيع الموارد المالية، متحججون بأنه يهدر اموالهم في بناء دورة منيعة حوله..

أوجدوا له اكثر من متذوق طعام، حيث يمر طعامه بعدة اختبارات، بعد ان صار في واجهة الدولة الحاكمة، حتى يتخلص من تلك المآزق وعين على رأس حرسه الخاص ليقوده "شدري" أشد المخلصين، من

بعد ان انقذه من فخاخ وكمائن موت محقق، بعد ذلك رقاه من فلاح الى المسؤول الاول في دائرة حمايته الاولى. شرح لي "جميل" بأن الـ"مجبل" تحول الى رمز خاص لا يمكن ان ينال منه عابر مستطرق، لأنه صار ايقونة كبيرة، له نظام صارم، وحوله اشبه بالحلقة الحديدية المتكاملة، التي تحميه من المكروهات..

صار "جميل" يتملص كثيرا من تلك الدائرة المقربة، وصرت اعرف ماذا يريد، وكأني حافظة اسراره..

سألته مرة - "لم اخترت "سلوى"، قال بأن "القلب هو الذي اختار"[٩].

صرت أحترم رغباته، وأسراره، ولكن من يحب لا يعرف بكل اهتمامه، ولا اصل يشعر به، كنت اراه وسيما، مناسبا، يعرف كيف يدير الحوار، ولبقاً، ويعرف جيدا من يتحدث اليه، كنت ارى الكثير من اخواتي الناشئات من ابي يحاولن معه، عسى ان يثرن انتباهه، ولكنه كان يعرف بأنه، يتبع نداء القلب الذي اختار.

صرت على يقين بأن جميل لم يكن مخلوقا لأن يكون عاشقا لشقيقتي..

[٩] (ترشفتُ فاها إذا ترشفتُ كأسها فلا الهوى لم ادرِ أيهما الخَمرُ) – ابن الزقاق البلنسي

أخذ "جميل" يتوددني كثيرا، يحدثني عن "المجبل"، كأنما يريدني ان اوصل لمحبوبته رسائله، اوصل اليها ما عجز عنه، وكنت استمع اليه، من قصص عن الأب الذي كنت وشقيقتي نجهل الكثير عنه، وفاجأني بمعرفته بـ"أمي"، وكيف ماتت.

تلك التفاصيل التي كنت ابحث عنها، كأنما وجدتها تحت قدمي من بعد ان بحثت عنها يائسة من العثور عن احد يحدثني عنها، ولم اعرف الا فيما بعد وبعد فوات الاوان..

٢٠.

كنت لا أعرف اصلا أين موقعنا على الارض، وأين مكاننا الجغرافي من هذا الكوكب، ولا أعرف اي شيء عن تلك الاماكن الاخرى المجاورة للمكان الذي يقع فيه قصرنا، وما عرفته، قد عرفته فيما بعد، عن تلك المقاطعات المتعددة، المنشأة حديثا كمقاطعات تقرر لها ان تكون لها حدود جغرافية مع مقاطعات مثلها، ويدير شؤونها رجل واحد لا يقل سعة أفق عقل عن والدي، وهم في مجملهم يديرهم مدير كبير لا تكاد صورته تتضح لأي احد منهم، يسيرون على خطط تأتيهم منه متكاملة لا تقل عن خمس وعشرين عاماً. تلك الخطط تسير بالمكان والناس والطقس وفق ما تراه مناسبا لمنهجها، ولم يكن احد بين هؤلاء المدراء الصغار من يتمرد على تلك الخطط الدقيقة، فكل من سبق ان اظهر عصيانه، لاقى ما لم يكن في حسبانه[١٠]..

تلك المقاطعات المُعينة، المحددة وقع اختيار اماكنها، لتكون لها مسميات خاصة، تفرقها عن جاراتها المماثلة، وقد تم تحديدها، سلفا، وتم توجيه شركات البناء، لتؤسس لها حدودها، ليس وفق تضاريسها،

[١٠] (فقيل: عذابٌ لو أحطتِ بعلمهِ لجدتِ على الصّادي بماء اللمى العذبِ) – ابن حمديس

وانما وفق حسابات مستقبلية. تؤسس لها وفق رؤية معينة وتنشأ فوقها احدى النقاط لتكون واحدة من عشرات غيرها. على اساس وجودها يتأسس نقطة لبناء مكان اساسي يكون بؤرة لتكوين مجتمعات جديدة، من بناء مجتمعي جديد. يتم اختيارها لتكون في تلك احدى البقاع الارضية من الاماكن الخالية من الزرع، والنبع، والفارغة من السكان حيث تكون تلك النقطة هي احدى بدايات التأسيس الجديد.

عادة ما تكون بعيدة عن الطرق العامة، وبعيدة عن الانهر لتكون مقصيه عن ما كان قبلها. بعيدة عن الشبهات، وعادة ما تكون بؤرة، غير تقليدية، لأنها تريد ان تؤسس منظومة جديدة مليئة بالمقاصد.

وكان الـ"مجبل" يعرف وبدراية كاملة ما فعله، اذا أنشأ مقاطعة سكنية ببؤرة خفية، وصار الناس هم الذين يبحثون عنها، ليلتفوا حولها، فقد تعودت البشرية منذ اول الخلق ان تبحث عن العارفين بمواعيد المطر

والرياح والجفاف.. ظنا منها أن الالهة قد اعطتها اسرارها، وهم خير من ينوب عنهم في محاكاتها، وتستجيب بعجالة لهم[١١]..

ولم يكن "المجبل" الا واحدا من اللاعبين الرئيسيين في بناء تلك النقطة التي يمكنه بها، بناء مجده الانساني على حساب الانسان الاخر الذي يجهل اللعبة التي تصير الى استعباده، وقياده حيث تريد.. حيث لم يكن "المجبل" وحده، بل كان شريكه في جميع مراحل اللعبة، رفيق عمره، والصديق المخلص الذي سلمه فيما بعد، كل مقدراته، وجعله يقود له كل دوائر حمايته، من بعد ان تحول الى ايقونة ثانوية تحت الايقونة، تتفرع منها الاذرع الاخرى الى جميع الاتجاهات.

المعرفة كانت هي الاساس، وبها تَصيّر كل ما يريده الانسان، تلك المعرفة، كانت تحتاج منه الى اناس يعملون معه في الخفاء، لينظموا ويرسخوا في عقولهم القناعات الثابتة، بأن الالهة بكل ما تمتلك من قوة، تحقق للـ"مجبل" كل ما يطلبه منها، وبذلك، صارت ايقونته، تلمع، وتجذب، وصار المكان الذي اخفى فيه اسراره، وممتلكاته.

---

[١١] (ولقد كتمت الحبّ بين جوانحي حتى تكلم في دموع شؤوني، هيهات لا تخفى علامات الهوى، كاد المريب بأن يقول خذوني) – ابن سهيل الأندلسي

بات يحتاج الى غطاء مانع، يحيط به، ويحرسه، وعادة ما يكون الصادقون في ايمانهم، هم الذين ينفذون له مطالبه، فهم اصحاب الاماني المُحققة، اصحاب الولاء الاكثر، المضحون بالغالي والنفيس من اجل أيقونتهم الكبرى.

بذلك، قسموا الناس المتحلقة حول الـ"مجبل".. الى مجموعات لتكون اشبه بغلاف متعدد الطبقات، وطبقة صار لها اسم، يميزها عن الطبقة الاخرى، وكلما اتسعت حلقة الطبقة، يكون نفوذها اعلى، والسطوة التي عليها اكبر من الطبقة التي تسبقها.[١٢]

صار البيت الكبير الذي اسمه "القصر"، والذي سكناه خمسة وعشرين عاما، اول نقطة بناء في تلك المنطقة البعيدة، حيث صار الناس مساقين اليها يسكنون حولها، وفق نظام مرسوم، اساسه الولاء الى "مجبل"..

[١٢] (ما لي وللبرق أستقيه من ظمإٍ.. هيهاتَ، لا ريّ إلا مِنْ ثنياك) – ابن دراج القسطلي

٢١.

يمكنني ان اقول ان العلامة الفارقة في تاريخ النظام العبقري، القوي، قد حدثت منذ ان اخطأ الـ"مجبل" خطأه الجسيم، والمدمر، عندما جاء ذلك اليوم الذي اقصى فيه "شدري" من مناصبه في قيادة الحرس الخاص.

وقصة ذلك انه حيث كان الـ"مجبل" يتجول في احدى حدائق قصره، واذا به يلحظ بين احد طاقم حراسه الرابضين على حماية سور البيت، احدا غريبا ولم يره من قبل، حيث كان الـ"مجبل" لا ينسى أي وجه يقابله حتى ولو بعد عشرين عاما، كان يحفظ الوجوه، ويتذكر الاسماء، وبقية التفاصيل عمن قابله، وكان ذلك الحارس مرتبكا، وخائفا فلمحه "المجبل"، وشكك بأمره، لأنه لم يكن من الحراس الذين قد عرفهم. فأرسل في سؤال "شدري"، عن سبب وجود شخص غريب بين الحراس.[١٣]

[١٣] (قريبُ مجيبُ ظاهرُ وهو باطنُ وجلّ جلالا عن حجابِ وعن سترِ) – ابن الجنان الأنصاري

فتعذر على "شدري" ايجاد الجواب المقنع، حول من جاء بهذا الفرد، ودسه بين الحرس الخاص، ولم يسبق لـ"مجبل" معرفته من قبل. مما اضطر "شدري" على ارتجال كذبة علها تنطلي على صاحبه العارف. وكانت الكذبة التي جعلت منه غير مأمون الجانب، وأفقدت ثقة الصاحب بصاحبه، عندما قال له:

- "أنت يا سيدي من وقع له أمر تعيينه"..

كأنه نسي بأن الـ"مجبل" يحرص جيدا على تدوين تفاصيل اي اجراء يتخذه، ولما لم يجد ما كتبه في دفتر الدائرة الاولى، حيث لم ينس منها اسما واحدا، وكلما كان يقرأ الاسماء، كان يستعيد وجوه جميع الحراس كل اسم بمكانه، وكل وجه بعلامته، وذلك الوجه كان غريبا عليه، مجهول النسب، مدسوسا لغاية بات لا يجهلها، ولم يكن بالأمر السهل، وتوجب عليه أن يعزل "شدري" من منصبه..

حتى أدرك "شدري" نهايته المحتومة، ولقى الكثير من الشامتين الذين عاملهم في السابق بسوء المعاملة. أيام كان اليد الضاربة القوية التي

أوكل إليها في السابق العديد من أدق المهمات السرية، والعلنية، وفتك له بالمعارضين أشدّ الفتك.[١٤]

حيث كان بفراسة لا تخطيء، تكفي ان ينظر الى اي شخص ليعرف من يكون، ويقيّم درجة ولائه، على ذلك الأساس، استطاع ان يعمق من وجوده الأيقوني فوق رؤوس الجميع، ويصمد بنظامه الصارم ازاء تحديات كل أعدائه..

لم يكن "المجبل" يريد ان يحاججه احد في اشياء قد حسب حسابها، ولا وقت لديه لمراجعة قرار اتخذه، لان نظامه كان مبنيا على الطاعة، والولاء، الطاعة يعني التقدم معه الى امام، واما الولاء، فهو العقيدة الهامة التي يستثني بها كل شيء، فالطاعة والولاء هما الصنوان المتكاملان اللذان على الجميع الالتزام بهما، وعلى الجميع ان يظهرهما امامه، وخلفه وعلى من يعمل معه ان يقرر بهما المستقبل.

"يتحول جرح الكبرياء إلى وباء قاتل يفرق بين الأعزاء، إن لم يطبب، يستفحل إلى مرض سقيم، ويتحول إلى عداوة مستديمة"

---

[١٤] (أَحَتْ من عضتي في نهدها ثم عضت حُرَّ وجهي عمدا، فأنا المجروح من عضتها لا شفاني الله منها أبدا) – ابن شهيد الأندلسي

٢٢.

كان الجميع يعلم ان "شدري الفلاح" رفيق العمر، كاتم الاسرار، وساعده الايمن في كل صغيرة وكبيرة قام بها، او ينوي القيام بها، وهو الذي نذر حياته في خدمة نظام الـ"مجبل" ورفعة مجده. [١٥]

بقي يقول في نفسه؛ "لا استحق منه القرار القاسي المجحف بعد كل الوفاء والولاء المطلق، يتركني بلا منصب، طامة كبرى، ولا يجب السكوت عنها"...

انزوى جانباً، بقي خانعاً، متظاهرا بأنه لا يستحق من اعزّ رمز ذلك الامر، وكانه قد رضخ للإرادة، واسمعه ما كان يسمعه في كل امر:

- "سمعاً وطاعة.. يا سيدي المجبل العظيم"..

[١٥] (نادمتها ليلاً وقد طلعت به شمسا وقد رق الشرابُ سرابا، وترنّمت حتّى سمعتُ حمامةً حتى إذا حسرت زجرتُ غرابا) – ابن خفاجة

٢٣.

اعتبر "شدري" جميلاً من احد الاوفياء الذين يمكنه الاعتماد عليهم، تمام الاعتماد، وفي ادق الأمور سرية، ويعده الأقرب بين كل الذين يطيعونه طاعة عمياء، فأوكل إليه مهمة الانقلاب على ارادة الـ"مجبل"..

خصوصاً بعد تماديه بعزله عن مركزه، الذي كان القوة الدفينة والحقيقية التي يستقر عليها النظام، فهو القائد العام لقادة الجيوش، والمستشار الفطن لسلسلة بناء الدولة، وقائد الجهاز الأمني المباشر الحديدي الذي يضرب به كل معتدٍ يبغي شراً برأس النظام. ويعد الرأس الكبيرة التي تهابها الأركان العسكرية. كان ذلك الأمر لم يدرس المجبل عواقبه، وإن ارتجاله السريع بعزل هكذا ركيزة، لها عمقها في كل ركن من أركان النظام، يعد من أكبر أخطائه، المبنية على تهور غير محسوب.

عندما يتخلى عنه، فإنه يعني أنه قد بات غير عارف بمصير كل تلك المكونات المترابطة، المتواشجة، المبنية. كحلقات متواصلة ببعضها،

واحدة تدعم الأخرى، يربط ما بينها "شدري"، وإن خسره، فكأنما عندما خسره فإنه خسر سلسلة الربط والتي دونه تصبح عديمة الفائدة. اذا انفتح، فينفك عنها سورها القوي، ويكون سهلا على المتربصين العازمين على تقويض النظام برمته.

فما كان على "شدري" الا ان يعدل ذلك القرار الضعيف وعده قرارا غير مدروس، فأعد نفسه للقرار الأهم، الاكثر حكمة، والذي ينقذ النظام الذي اوشك على ان يتهاوى الى الحضيض، بقرار مضاد، منقذ، يكون بديل قرار "المجبل" لمزيد من تقوية النظام، فأوعز للدائرة المقرّبة المطيعة، العمل بصمت وتسلم السلطة، وعزل الرأس المتهاوي عن واجهة القيادة، واخفائه عن كل الذين كانوا يعتقدون بأنه اسطورة الاساطير، والضرورة المحتومة للنظام، وراح الاستعداد يجري لمرحلة جديدة لتكون مرحلة ما بعد الـ"مجبل"..

٢٤.

تبين لي في ما بعد؛ ان "جميل" لم يكن محبا لـ"شدري"، ولم يكن من بين المخلصين، بالرغم من حب الثاني للأول، وكان يعتبره بمثابة ابن له، فهو لم يتزوج حتى يرزق بابن يعطيه حبه، مثلما اعطى "شدري" لجميل العطف الابوي، ولذلك أسباب لم تتوضح لنا، حيث عوالم الرجال لا تتشابه مع عوالم وتفكير النساء، فالرجال يستفردون امام السلطة وتضعف ارادتهم، ويتنكرون لأحبائهم، اما المرأة فإنها تريد الرجل ان يتسلط عليها، لتقوده من داخله، حيث تتركه يظن انه هو من يقود، وانها لا تريد شريكة فيه تقوده بطريقة غير طريقتها، برغم طمع الرجل شراكة اكثر من امرأة فيه..

بعدما اصدر "المجبل" امرا بعزل "شدري" من جميع مناصبه، استقبل "جميل" الامر بفرح كان قد استقر في قرارة نفسه، ولكنه لم يجهر به، لأن ذلك الامر قد يعود عليه بمنصب اعلى. حيث كان متشفيا في اعماقه من "شدري"، وكأنما اقترب منه الامل الأكبر الذي كان يحلم به، ان يتسلم بعده منصبه الهام، ولأنه كان يظن بأنه المرشح الاصلح بعده، حتى يمكنه فيما بعد ان يتزوج ابنته. وبالتالي سوف يعزز مكانته لدى الـ"مجبل" وليكون خليفته القادم كرمز اعظم.

ولم يكن "شدري" يعلم بما كان يخطط له "جميل"، وهكذا تسلم من "شدري" خطة الانقضاض على رأس النظام، وعزله عن الواجهة، وايداعه في سجن لا يعرف به احد سواه. [١٦]

ولكن "جميل" لم ينفذ الخطة بل فعل ما لم يتوقع منه، حيث سلم "المجبل" كل اوراق خطة "شدري" الكاملة، الذي لم يكن يتوقع من ان يخونه اعزّ الناس واقربهم.

توضحت لي الصورة فيما بعد بأن "جميل" و"شدري" قد وضعا خطتهما سوية، درسا الاحتمالات، ليضمنا نجاحها..

حيث تلبس "جميل" دور المخلص، والشريف المدافع الشهم عن الـ"مجبل"، ذلك الأمر الذي سوف يجعل منه البطل الذي سوف يتعكز عليه في المستقبل. وكشف خطة انقلاب "شدري" حيث قرر الوقوف الى صف "المجبل" بديلا عنه. [١٧]

كأنه لم يكن يعرف وقتها، ان "المجبل" لوحده قد تخلى عنه الخبراء الناصحون، الذين ارتأوا ان يكون "شدري" ايقونة المستقبل، والبديل

---

[١٦] (أصلي فأشدو، حين أتلو، بذكرها، وأطربُ في المحرابِ وهي إمامي) – ابن الفارض

[١٧] (وفي وصلها، عامٌ لدي كلحظةٍ، وساعةُ هجرانٍ عليّ بعامِ) – ابن الفارض

المناسب للمرحلة القادمة، حيث بات "المجبل" من الماضي، ولم يكن في الحاضر سوى رجل محدود الخيال، ومحدود السلطة.[١٨]

كانت الخطة مرسومة بدقة بالغة، مثلما ارادوها: تركوا تسلم "المجبل" من "جميل" وشاية الانقلاب، ليباغت المجبل "شدري" واعوانه بالضربة الاولى وتركه يحاول قطع رأس دابر المؤامرة، وكانت غاية في ذلك ان يجعلوا منه اضحوكة العصر، وسوف يضطرب ويتخبط فيظهر قسوته البالغة على اغلب المقربين منه، وبذلك نجحوا بعزله عن دائرته الخاصة، ووقع في الفخ الأكبر الذي بيّن لأعوانه مظهره البشع المؤذي حيث راح يضرب كل من كان مقربا الى "شدري"، بحجة المؤامرة. ذلك الامر جعلهم يتعاطفون مع الثاني وراحوا يلتفون حوله. مقررين بأن الاول فقد شرعيته وبات لا يصلح عليهم متسلطا.

وتعزز اسم "شدري" رجل المرحلة القادمة، العارف، المهيمن المخترع لكل اساس النظام والقائمين عليه، و"سخروا منه أنه لا يصلح حتى ان يقود زوجاته الأربع"..

---

[١٨] (وقد علِموا أني قتيلُ لحاظها فأن لها في جارحةِ نصلُ) – ابن الفارض

كان مفرغا من كل تركيز، ولا يحضر منه سوى ظل يعمقه سطوع الضوء الذي خلفه وهو الذي يبرر وجوده.

ارتد الدرس من دائرته التي فتك بها، وانه ضرب ضربته الخائبة، وعليه ان ينتظر ضربة الرد من "شدري" الصديق الذي تحول الى اخطر الاعداء..

- "نعلمه ما لم نتعلمه منه".

٢٥.

دائما يكون النصر النهائي حليفا لصانعه الماهر، الدقيق، الحليم، العارف المطلع على التفاصيل الدقيقة لخبايا الأمور. ذلك البناء الحاذق، الذكي، الفطن.. الذي افشل بحنكته وسعة افقه مخططات الاعداء، استطاع ان ينهض من فوق ركام الرماد بقوة اكبر، منقذا كرامة البلاد والعباد من العاديات، وان يتصدى بحزم لكل من تسول نفسه الخيانة، ويعصي اوامره، بفضل النظام السري الذي كان يعطي الاموال لقادته الكبار، ويجزل لهم العطايا الكبيرة..

٢٦.

لم تكن تلك إلا عواصف داخلية زعزعت شخص الـ"مجبل"، ولكنها لم تزحزح نظامه القوي، القابض على السلطة بيد من حديد. بقي اسم النظام قائما بحكم الخبرة العالية، والحنكة الحكيمة التي يتمتع بها "شدري"، العقل المدبر لرأس النظام، حيث لم يعلن ذلك على الناس، نهاية "المجبل"، بل أبقاه اسما ليقوي من ثباته، وكان واعيا لذلك ان لا يترك آثار ذلك أن تظهر على السطح..

حيث أخذ يعزز من سلطته الفردية، مبقيا النظام في ظاهره كما لو لم يحدث فيه أي تغير، معلنا ولاءه وتشبثه بنظام "المجبل" اكثر من السابق. بعد ان حكمه من العمق بقوة أشد من السابق..

لكنه صار يدعو الى الانفتاح على الجيران، يؤيد كل الانقلابات الحرة التي تطيح برؤوس الأنظمة "التي يطلق عليها بالأنظمة العفنة، البائدة"، حيث راح يدعم كل الاحزاب والجماعات المعارضة ليضمهم تحت خيمة "الطموح الى نظام مستقبلي ديمقراطي"، وراح يسلم المخلصين له رئاسات الاحزاب والجماعات المعارضة، ويدعمهم بكل ما يمتلك النظام من سيولة مالية، لأجل التمهيد للمرحلة المقبلة..

بينما تعمد "شدري" بدراية العارف؛ ان يبقي صورة "المجبل" تزين على الجدران، وتماثيله في الساحات، كذلك بقي امضاءه يجيز به ويسيّر به ما يريد. وكان يقابل بنفسه كل زائر رفيع ولم يكن احد يجرؤ على سؤاله أين الـ"مجبل"..[١٩]

[١٩] (كنّا نرى اليأس تُسلينا عوارضُهُ وقد يئسنا فما لليأس يغرينا) – ابن زيدون

٢٧.

في احدى الصباحات من احد الايام التالية، حضر مسلحون كثيرون الى الجناح الخاص بنا، وبصحبتهم كلاب مخيفة، ليتفحصوا بدقة غرفة شقيقتي "سلوى"، وأخذوا يقلبونها رأسا على عقب، ويبحثون بدقة في كل أغراضها، وكأنهم لم يتركوا ريشة واحدة من مخدتها لم يطلها التدقيق، ولما لم يجدوا فيها ما جاءوا من اجله، اعادوا البحث مرة، وأخرى.

كانوا قد أغلقوا الباب علي، ومنعوني من ان ارى ما يجري من وراء الباب. لكني قد عرفت بأن شقيقتي اختفت عن القصر، ويواصلون عنها بحثهم عنها في كل مكان ولم يجدوا لها اثراً، تركوني غير مصدقة اتهالك الى الارض، حيث بقيت مع نفسي ارفض ما سمعته عن شقيقتي، واختفائها، بقيت مذهولة لا اعرف كيف انطق بكلمة، اين وصل بنا الحال، واين يمكنها ان تصل، صرت على يقين بانها اختطفت لأجل تكون ورقة ضغط تستخدم للتأثير على المجبل بشأن ان يتراجع عن قراره قد اقره، وهو الذي لم يسبق له ان تراجع عن قرار، لكن تلك كانت مصيبة، كبيرة قد وقعت علي، كيف سأجيب على الأسئلة، وأنا لا اعرف اي شيء، ولم التمس اي شكل في

الموضوع، بقيت متهالكة في مكاني، مكومة قرب الباب المغلق علي من الخارج، أنتظر عن ماذا يتمخض التفتيش.

كأنما بقيت معلقة في الفضاء، أريد أن أستقر بقدم واحدة على الأرض، أن أشعر بأمان، لأتمكن من استعادة أنفاسي المنتظمة، كانت دمائي تغلي في شراييني، لم استطع مواصلة التفكير المترابط، ابدا ولم اصدق ما سمعت، حيث بلغ بي الحزن الى حد الاختناق، اعتراني شعور بأني قد فقدتها الى الأبد..

يومها عرفت ان "سلوى" قد تركت فراشها باردا، هاربة، وكل لحظة يكاد قلبي ان يتوقف من شدة تلك الصدمة.

ولكن رسالة منها رأفت بحالي، كان مفادها "استقرت في مكان آمن"، وترجوني ان لا اخبر احدا"..

كنت لا اعرف ماذا أقول لو وجه "المجبل" الأسئلة لي، وكيف سأجيب عن أسئلته، حيث كنت يومها احسبه حيّا يترأس نظام القصر، وهو الحاكم النافذ، الآمر الناهي.

ولما مرت الأيام دون ان يتقدم احد لسؤالي عنها، تيقنت ان الـ"مجبل" كان اول العارفين بما حلّ بابنته، ورحت أتذكر كيف كانت "أمي"، تستجوبه عندما كانت تكتشف بأن مرر عليها كذبة بيضاء من أكاذيبه، فقررت فورا، البحث بنفسي عن الأمر، وان اتقصى الى ما استطيع الوصول اليه، ولم يكن امامي سوى السؤال عن "جميل"، لكنهم، كذبوا علي عندما اخبروني انه كلف في مشوار يقضيه بأمر من "المجبل"، وعلي انتظاره حتى يعود.

ولم اعرف الا فيما بعد انه استطاع ان يهرب مع شقيقتي "سلوى"، خوفا من بطش "شدري" المنتصر على ارادة "المجبل"..[٢٠]

[٢٠] (يا صاحبيَّ وقد مضى حُكم الهوى روحاً بشيمةِ الأشفاقِ) – ابن خاتمة الانصاري

٢٨.

في البدء انطلت عليّ جميع اكاذيبهم، وخدعهم لي، بشأن عودة "جميل".. كأنما صاروا كلهم يقولون بلسان واحد، دون ان يصدقوا في حرف واحد. كنت أسأل عنه جميع الخادمات، والمنظفات، والحارسات، صغيرتهن وكبيرتهن؛ فيخبرونني "انه في مهمة وسيعود قريباً"، صرت على يقين بأن ذلك الامر غير ما عهدته في السابق، حيث بتُّ وحيدة في مكان جديد نقلوني إليه، وصرت افتقد ذلك الرجل الذي كان يتسلق الأشجار، ومن شجرة الى شجرة حتى يصل غرفتي..

كنت أخاف عليه لأن علاقة الحب لابد وأن تلاحظ، لابد وأن تفوح منها رائحة ما، لتفضحها، كنت اعرف بأنه لم ينادِ باسمي يوما ما، وانه جاء إلى غرفتي بعد ان اخطأ طريقه اليها، خوفا من رقباء القصر الذين كانت لا تفوتهم صغيرة او كبيرة ليخبروها إلى "المجبل"، تلك الفرصة الأولى السانحة كنت فيها قد أسلمت إليه نفسي، وأنا أعرف بأنه قد جاء من أجلها، يبحث عنها، وحدها، رغبت أن أطلق الخيال، ورحت أتقمص أمامه شخصها، يومها كنت اجرب كيف كنت اريده لي، ان أقصيها مثلما كانت تقصي "شيخان" زوجاته

الأخريات، اصبحت اريد اعادة درسها البليغ الذي ملأ لي ذهني، وجعلني امرأة، تفتقد رجلا يُكاملها في خلوتها، لتعطيه أمطار صيفها الحار، الذي سينبت في حقولها أعراش عنب وزهر رمان بلون صاف، تدنو منه ليلامسها ما يفطنها بأنها انثى مرغوبة، مشتهاة، وليست امرأة منفية خلف أضلاع لا ينبض بين جوانحها قلب يردد الأغنيات. كانت تذكر الصورة تلو الأخرى، كيف تحمله على صدرها، ويختض بهما العالم، وكيف تسري النغمات في أنحاء خلاياها، تسعر النار اللذيذة، نار زرقاء تتراقص مع الأغنيات البديعة، كأنما تترنح سكرى نشوة تحت عينيه المشعتين وهي تغتلم، وتبوح بأنفاسه التي تفحّ من مسامها، تراه يتنفس داخلها، فتعطيه هواءها، تعطيه، باستسلام كأي أنثى تعرف كيف تعطي ما يريد منها الذكر فيريدها أكثر، وأكثر..

صار شوقي إليه، يكبر، وصرت أتخيل كيف أصابعه تمتد لتجعل مسامات بشرتي، تبتهج، وتتنفس هواءً، جديداً، في كل مرة يكون في غاية العذوبة، ولن ينسى أبداً..

٢٩.

لم اكن ادري اول الأمر بأن "شدري" وضع يديه عليَّ بأمر صارم عليه ختم الـ"مجبل"، ولم يكن امامي إلا ان ارضى بأن اكون زوجا له.

لم يكن الأمر بيدي، اذ بقيت وحيدة، معزولة، بين خادمات وعاملات لا يعرفن بأني بشرٌ اريد ان اكلمهن، وأسمعهن، حيث يتحدثن بينما كنت لا أسمع منهن اي كلمة سوى كلمة "نعم"، ويتحدثن مع بعضهن إلا معي. كأني كنت مقصية في عزلة جعلتني أتغير، وأنزل لذلك الأمر المخلص من عزلة الصمت القاهر.

كنت بعيدة عن القرار، فلم أرفض او اوافق، حتى صار عرسا كبيراً، لم ينافسه أي عرس في المعمورة، كما أخبروني، وكان مبهجا، حيث تراقص الناس في الشوارع، وراحوا ينقلون تعابير فرحهم بذلك حيث انتقلت الى قصر اكبر لأجل ان ينزل بي "شدري" زوجا شرعيا، وحسب رغبة المجبل الذي لا يعترض على رغبة من رغباته احد..

مباركة زواج "شدري" جاءت من "المجبل"، فرحبت بها، ولأني اريد ان أنال رضاه، ولم اكن ادري اني كنت احدى سبايا الحروب، التي يستملكها المنتصر ساعة انتصاره..

٣٠.

كان طيب القلب معي، يراعيني، وبتّ مطمئنة إليه، وأغدق عليه كل استعدادي لرجولته، فلم أكن معه خائنة عشيق، بل المُخلِصة، المتواصلِة بالخيال.. صرت أكون معه المرأة اللينة، التي يريدها الرجل لتشبع غرائزه، وتشبع به غرائزها، كأنما كنت أراه قد عاد شاباً، ولم يكن بعمر "أبي"، مختلفا عن ذلك الرجل الذي كان في السابق محني الظهر لأجل المستمع بخشوع لم يطلبه سيده منه، بالرغم من ذلك لم أشك بذلك الجسد الفتي، بل أظهرت إعجابي، خوفا من تلك المفاجآت المتوالية والتي لا تخطر ببال شخص مثلي، حيث ينزلون على أرض الواقع عدة اشخاص يختارونهم على اساس تقارب شكلي، ويجرون عليهم عمليات تعديل طفيفة ليكونوا متطابقين في الشكل، لا يفرق ما بينهم أحد مهما بلغت دقة ملاحظته، يتبادلون الأدوار فيما بينهم، تارة يظهر أي منهم في مكان بينما يظهر شبيهة في مكان آخر، وفي الوقت ذاته. يكون حاضرا مشرفا على عدة أعمال في أماكن متباعدة.

صرت أشك بأن في كل مرة يدخلني واحد غير الذي دخلني. فلم يكن مني اي نجاح بالحصول على جواب حقيقي شاف.. [٢١]

٣١.

عرفت بعض حقيقة "جميل" من "شدري" الذي أخبرني القصة كاملة ووفق ما تخدمه عندي، حكى لي عن "جميل" الجاحد، الذي خذل له الآمال، بتلك الخيانة العظمى حيث سوّلت له نفسه ان يطعن "المجبل" في كرامته، ويسرق منه ابنته، وان يعبر بها الحدود هاربا برغم كل تلك الحراسة المشددة..

وبتلك الفعلة قد احزن الـ"مجبل" حزنا شديدا.. الى درجة الذبول، وقد مرض من شدة الكمد على ابنته البكر "سلوى" وباتت تلك الخيانة العظمى تؤلمه كطعنة نجلاء وبات الجزع عليها يوهنه اكثر، يفاقم ألمه.

وكأنما لم ينقذه من ذلك امهر الاطباء خبرة، وباتت حالته الصحية مستعصية على امهر الأطباء، وواصلت التدهور الملحوظ.

---

[٢١] (تعشقتُ في قومٍ غرابٍ فودّعوا فيا ليتني ميتٌ ولمْ اتعشقِ) – ابن خاتمة

لما سمعت ذلك، اخذني البكاء، ورحت اقول له انا من كان يتمنى رؤيته، ورجوت "شدري" ان يأخذني اليه، وأفتعل انه نزل عند رغبتي، فحدد اليوم التالي، للذهاب بي اليه.

لم استطع النوم وصرت طوال الليل اعدّ له الاسئلة التي أريد اجوبتها.. اسئلة، وعتب، ورغبة صادقة لقبلات حنونة أمسيت لها بأمس الحاجة..

ما أن حلّ الصباح حتى وصلتني عربة صغيرة، يقودها حوذي اخرس لم افهم منه الا بالإيماءات انه جاء بأمر الـ"مجبل" الذي علم من "شدري" برغبتي اني اريد مقابلته، حيث جهز لأخذي اليه حيث قبة حكم "المجبل"..

وكان ذلك المكان السري لا يبتعد كثيرا عن مكان زوجته الثالثة، حيث أنزلتني العربة، وبينما كنت ارى من شباكها التغيرات الجمة التي لا تحصى على الطريق الواصل الى مكانه.

لما ادخلوني وجدت خطى متسارعة، وتتراكض داخل الفناء، ويحيط به فريق من الاطباء، وكانوا في كامل استعدادهم، بملابس بيض،

يحملون عددهم الطبية، وحولهم خدم كثيرون يتحركون بريبة، وكأن مكروها اوشك ان يحدث.

فأدخلوني اليه، كانت نقطة التقاء في منتصف قاعة كبيرة حضرها مصورون. كلهم متحلقون حول تابوت فخم كان يسجى به الـ"مجبل"، وعهدت "شدري" عند قدميه يبكي بكاء سخيا، وكأنه يودعه هذه المرة الى الأبد.

٣٢.

منذ لحظتها عرفت ان ابي" لم يمت بذلك اليوم، وانما كان موته قبل ذلك بكثير، اذ تعمدوا ان يعرضوه امام الناس مُحَنَّطا، وتبين بالصور وجميع وسائل الاعلام، كان منظره، جميلا، ومعطرا، ويرتدي ابهى حلله النظامية.. كأنما كنت قد رأيت استعراضا مبالغا عن ذلك الموت المزخرف، والمصنوع بإرادة محتومة.

مراسيم تريدني ان اظهر أمام الملأ؛ ان ابنته وصهره آخر من يودعه، ارادة تجعل حضوري لمراسم وداعه، بأنه يرحل بشرعية الى مثواه الأخير و ان تلك اللحظة الاخيرة، لحظة حاسمة تقطع دابر كل فتنة او تشكيك. فحظيت بالقبول، والارتياح..

كنت انظر الى عيني "ابي" الشاخصتين تحت جفنين قد اغلقا مرغمين، حيث بدا لي وكأنه مدّ اصابعه القوية ليتمسك بكرسي سلطة الـ"مجبل"، وان يُجْبِلَ الناس على أمر أراده..

بينما عينا "شدري" تتقافزان بقلق، تنظران الي، وتتلامعان استعدادا لأي امر قد لا يكون في الحسبان.. كأنما تستطلعان عن مدى ما طلي علينا من رسم ماهر. تبعد الريبة وتظهر البراءة، لكنها بقيت صورة متوترة، ومشدودة لا تقبل ان تكون صورة اخرى غير صورة ارادوا لها ان تكون عليها. من اجل ان يتمكن المشهد المعد بإتقان لأجل أن يؤهلنا، ويجعل منا مقتنعين بأنه الخليفة الشرعي على امر الناس من بعده.

الصدمة الأخرى التي تلقيتها عندما رأيت جثة "امي" ايضاً مُحنطة قرب جثة "ابي"، وكأن موتهما قد حدث لهما قبل دخولي الى تلك القبة، بقليل.

.٣٣

"تبين بأن المجبل قد اودع كل ما يمتلك من ثروات في حسابات مصرفية في دولة محايدة، مناصفة باسم "سلوى المجبل"، وشقيقتها "ليلى المجبل".. من بعد ان ترك معها وصية خطيّة لا تقبل النقض، مفادها انه لن يحق لأي شخص كان ومهما كان منصبه بعده، التصرف بها، إلا بعد موته، ميتة طبيعية، اما في حال موته بالقتل العمد، تكون الثروة بالكامل وبالتساوي لصالح كل من يثبت قانونا انه خدم المجبل ونظامه، أو خدم عائلته، ويشمل كل من خدم اي موظفٍ في نظامه".

لقد كان ذلك الشرط هو صمام الأمان الذي جعل من الدائرة الخاصة تسعى لتكون حامية له، وتطمح مستقبلا لتكون من بين المقربين الذين يسعون بالمكافأة الكبرى بعد الحفاظ على رأس النظام. اما اذا مات غدرا بأي طريقة من الطرق فذلك يعني انه جعل من ثروته كلها تتلاشى، من بعده، وتكون ملكا لجميع الناس. وقد كان ذلك الشرط، مثل امر محتوم لأن يبقى نظامه قائما بعده، وليضمن ان ثروته تبقى في خدمته بعد موته، ومن يكمل له المسيرة النظامية التي أسسها عقله النير".

٣٤.

تبين لي؛ ان "ابي" لم يمت في فراشه كما كان يتمنى، بعد شيخوخة او مرض عضال، ولكن مات ميتة غدر.

حيث ألزم "شدري" كل الذين من حوله على حفظ السرّ، والثروة من التبدد. وكانت خطته ان يخفي على الموظفين الصغار فرصة المطالبة بحقوقهم حسب ما جاءت بها الوصية، وان يعود عليهم حقهم المسلوب، بدلا من ان يتنعم غيرهم به من كبار الموظفين. فأكد على حفظ السرّ لأن تسربه سوف يحدث فوضى عارمة شاملة تؤدي الى ان يطاح بكل النظام القوي. مثلما اعتمد "المجبل" حرق الأرض التي يغادرها. فلم تكن سوى قنبلة موقتة تنفجر عقب قتله، او عقب اي مكروه تحسب منه.

وكان يعلم ان المطالبة بالثروة من قبل جميع الموظفين عاصفة لا يمكن ان يتصدى لها اقوى الحكام..

بذلك يتحول رمزه كبطل جمع الثروة لرفاهيتهم، ويجعلهم يضيعون بها كل ما يبدد احلامهم الى نتف صغيرة.

لذلك تكتم "شدري" على موته وأوهم القانون بأن رأس النظام القوي قد مات كما يموت رؤساء الانظمة القوية، الصارمة، وترك برغبته من يخلفه شرعا، ويحافظ على المصلحة العامة.

وتمكنت ان اعلم ان "جميل" استطاع في المرة الاخيرة ان يهرب من السجن دون دراية "شدري"، وقد مضى في خطته الجهنمية.

بعد ان نجح في اختطاف "سلوى"، وأفلت من تشدد الحراس الذين هم اعلم من غيره بمكانه. ثم تزوج سلوى لأنها امرأة سهلة المنال، وتمكن بواسطتها ان يأخذ ارصدتها المالية، بسهولة، فهي المرأة الطيّعة، السهلة القياد، ويعزلها عن الارصدة المالية، التي يتحول بواسطتها الى سلطان له نفوذ اكثر من اي حاكم. ثم نقل الاموال الى حسابه الشخصي، وسوف يقوم باستغلال الشبه الذي بين الشقيقتين، ويقدمها الى البنك مرة- انها – بصفتها انا- من بعد ان يزوّر امضائي، ويستولي على بقية الرصيد، ليتخلص من سلطة "شدري"، ومن ثم يتركها ويهاجر الى مكان مجهول.

صرت اراهما "شدري"/ "جميل" واحدا، وانهما لم يختلفا في امر سابق، وكأنهما كانا يسيران سويا بخط مستقيم نحو هدفهما المشترك، وحتما سوف يلتقيان بقرار التخلص مني، قبل ان يفكر أحدهما بالتخلص من الآخر..

بقيت في القصر الكبير أستمد قوتي من صلاحياتي كسيدة اولى للقصر، حيث رضخت للإرادة في اول الأمر، ولم اخالفها، حتى زادت من موقعي قوة، من بعد ان صبرت كثيرا على مجمل اكاذيبهم، واستطعت ان استمع الى ما كان مخفيا عني، ولأعرف السر الاول الذي يخص موت "امي" وسبب احتفاظ النظام بجثتها محنطة كل تلك المدة الطويلة، والغاية من تحويلها الى ايقونة ورفيقة للمجبل في مدفنه، كأنما كنت اريد ان اعرف ما خفي عني من اسرار علاقة "والدي" الوثيقة بـ"شدري" و"جميل".. ثم اجريت سرّا مقابلات مع كبار الخادمات اللواتي احالهن "شدري" على التقاعد، ثم وهبتهن ما لم يستطعن الحصول عليه، ورحت اعطي المال لمن تخبرني بالحقائق الغائبة، والمغيبة قسرا عني، وصرت اعيد ترتيب الحوادث، كلما أرشدتني معلومة، واجزل ببذخ لكل صادقة، تروي لي ما حرمت من معرفته.

حتى تبينت لي الصورة واضحة جلية، من بعد استنتاج من اكاذيبهم. وصرت اعرف اليقين..

كذلك صرت اكثر ليونة مع زوجي، لأجل تبرير كيفية الوصول الى حقيقة اليقين المطلق.

وصرت اخاف على نفسي من تلك الثروة القاتلة، لأجل امتلاكها، والتي يتحتم عليهما ان يستكملا إليها سعيهما المحموم.

تكاملت معرفتي بعد السؤال؛ ووصلت الى نتيجة حتمية، بأن "شدري" /"جميل" بعد ان حصلا على جميع الاموال التي كانت لنظام "المجبل"، فإنهما بلا شك، قد أوجدا السبب المباشر للتخلص مني، ومن شقيقتي.

ثم اعددت القرار النهائي في ان أضرم النار في فراشه الزوجي، وليتحول الى فحم، وأتوجه الى حيث لا اعلم.[٢٢]

انتهت/ بعقوبة

[٢٢] (تواضعتُ ذلّا وانخفاضّا لعزها فشرف قدري في هواها التواضعُ) – ابن الفارض

هذه الرواية عن مجتمع خيالي، فاسد أو مخيف أو غير مرغوب فيه بطريقة ما، منتمية الى أدب "الديستوبيا (Dystopia)" الذي يكشف عن مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، عالم وهمي ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ملامحه الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته يتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضاً. ومعنى "الديستوبيا" باللغة اليونانية المكان الخبيث، عكس المكان الفاضل "يوتوبيا".

روايةُ أحداثٍ تتصاعد لتكشف الكيفية التي استحوذت فيها الزعامات على العباد بما لديها من فطنة ودهاء قيدت بها الناس. رواية شفيفة، ليست معقدة البناء، تكشف بعمق عن الأنظمة العبقرية المستحوذة، خاصة.. تتوغل وتحكي بخط مستقيم عن الأوبئة المتفاقمة من أيدولوجية الأوهام، خاصة عندما تكبر، وتكبر، وتسعى للإمساك بقبضتها الحديدية علي المصائر..

رواية سوف يجد فيها القارئ سهولة نافذة في متابعة أحداثها الشيّقة:

حتى كان خيارنا تقديمها للقراء لما تحوي من اختزال وذكاء يجتذب جمهور القراء.

الناشر

9 789922 909127

بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميالي - الطابق الاول
هاتف: 009647704343692
تصميم: علي كاظم الشويلي

عين على الكتاب
دار الشعبية للنشر والتوزيع

محمد الأحمد
ليلى والحداج
رواية
2019